الدكتور مصطفى الشريف

الإسلام والحداثة

هل يكون غداً عالم عربى

؟!

دار الشروق

الإســــلام
والحــداثــة
هــل يكـون غـداً عـالم عـربـى

؟ !

الطبعــة الأولـى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصري - رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص . ب : ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣
فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

إهـــداء

إلى الجيـل الـذي يـواجـه تحديـات اليـوم والغـد ويبحث عن التحالـف بين الأصالـة والمصيـر والانسجام بيـن الإخلاص والتقـدم والتوازن بين الديـن والدنيـا، إلى الجيـل العربـي القـادم غـدا كالشـمـس جـيـل أمـة الوسط .

إلى زوجتي دائمـا ،

إلى أولادي

خلاصتـي وعـدتي وعتـادي

د. مصطفى الشـريـف
١٢ من رمضان ١٤١٩ هـ
٩ ينـــايـــر ١٩٩٩ م

المقدمة

هل يكون غدا عالم عربي؟ إنه سؤال جوهري تطرحه بدايات القرن الخامس عشر الهجري وتدفع به مطالع القرن الواحد والعشرين الميلادي، حيث يبدو العالم العربي في مفترق الطرق يواجه تحديات كبيرة، يمكن أن نوجزها في ثلاثة أسئلة أساسية، ينبغي تدبّرها: أولا ما هو مستقبل العالم العربي الإسلامي في إطار النظام الدولي الجديد؟ ثانيا ما هو مصير الهوية الثقافية العربية الإسلامية أمام الحداثة الغربية؟ ثالثا ما هو مستقبل الشعوب العربية في ظل عالم السوق؟

وتفرض هذه التحديات علينا ضرورة النظر في عدة قضايا جوهرية تتمثل فيما يلي: الإسلام والحداثة ـ نقد الحداثة ـ الإسلام والسياسة ـ ما معنى أن نكون مسلمين في عصر الحداثة؟ ـ ما نظرة الإسلام إلى علاقة الإنسان مع العالم ومع الغير؟ ـ كيفية مواجهة تأثيرات الحداثة على مختلف جوانب حياتنا.

على المستوى الحضاري، هناك ملاحظة أساسية هي أن أكثر الثقافات قد سقطت، أو بالأحرى ذابت، وتحولت إلى مجرد فلكلور وسلوكيات مهمشة، مهملة، أشبه ما تكون بالأطلال والآثار البالية غير مؤثرة ولا فاعلة في حركة الزمن المعاصر، وقد أفسحت هذه الثقافات مكانا للحداثة الغربية كي تسير العالم تدريجيا، بل وتتحكم فيه وفي مصائره. ولم تزل الهوية العربية الإسلامية تقاوم ذلك، بل إن العرب ـ فيما يبدو ـ هم آخر المقاومين، وإن كانت هذه المقاومة تظهر في شكل دفاعي ضعيف ومتناقض.

إن الطموح المشروع للعالم العربي هو التجديد مع الحرص على دينه وهويته ومرجعياته، وهذا أمر يثير الآخرين الذين ينظرون إلينا على أننا منافس مزاحم، وخصم متطرف، إن الحداثة الغربية تطرح بمنظوماتها وإفرازاتها مشكلات كثيرة على العالم العربي بصفة خاصة، وذلك بحكم طبيعتها المزدوجة وما تتضمنه من جوانب جيدة وجوانب رديئة، كما أنها في نفس الوقت تعيد النظر في وجود الشعوب الأخرى وقيمها مخلخلة بذلك توازننا التقليدي، وعلاقتنا مع أنفسنا ومع العالم والغير. فكيف يمكننا مواجهة هذا التحدي؟

يلزمنا بادئ ذي بدء أن نبين ما هي الحداثة، وما يجب أن تكون عليه العلاقة بين الحداثة والإسلام. فمن المعروف في عالم الحداثة أن الفصل بين مستويات الحياة كالدين والسياسة هو أحد شروط التقدم وممارسة الحريات. فما هي وجهة نظر الإسلام؟ كيف نفهم ونعيش اليوم وغدا الأركان الخمسة للإسلام والقيم الأساسية لديننا الحنيف؟ ذلك أن الرهان يتعلق بقضية الهوية وتربية الإنسان العربي.

وعلى المستوى السياسي، نجد أن العالم العربي يعيش أمام خطر النظام العالمي الذي لم يزل حتى الآن غامضا في بعض جوانبه، وهو، في نفس الوقت، لا يؤيد وجود المنظمات الإقليمية، ولا يدعمها بحكم طابعه الشمولي. ولابد من التأكيد هنا أن العرب عليهم التمسك بالعمل العربي المشترك. إن مستقبل العرب في وحدتهم، وفي تقوية ودعم العلاقات العربية العربية، تفاديّا للانقسامات التي تؤدي إلى التشتت والضعف، إن المطلوب هو التضامن العربي، فالعرب مواطنون موحدون يجمعهم نفس التاريخ، ونفس اللغة والدين، إنها ميزة فريدة ونادرة في هذا العالم، ولا بد من استثمارها.

إن العالم كله يعيش استقرارا بشكل ما مهما كانت المشاكل، أما العالم العربي فمازال يعاني نزاعات وظروفًا استعمارية تعوق حركته وتقدمه. غير أن

هذا العالم العربي متفتح على الغير في إطار التعاون والشراكة والتبادل والتعايش، وإن كان الآخرون يشككون في هذا.

وفي المجال الاقتصادي نجد أنّ اقتصاد السوق، والعالم الذي تهيمن عليه المادة يهدد القيم والتقاليد، فما تأثير هذا وانعكاسه على المجتمع العربي والإسلامي؟ إنّ مستقبل العالم العربي ومصيره مرتبطان بطريقة التفكير والتعامل مع قيمنا في مواجهة تحديات الزمن.

إن العالم العربي بصفة عامة يقبل شروط تنظيم عولمة التجارة، وفي هذا الإطار، عمل على فتح أسواقه وهو يبحث عن التطور. غير أن منطق اقتصاد السوق لعالم الحداثة قد يعوق مسيرة الشعوب نحو الرفاهية مع التمسك بثقافتها الخاصة.

ويجب أن يكون الحق في التطور مطلبا أساسيا للعالم العربي كما يتعين كذلك البحث عن تصور آخر للتطور يمنح مختلف بلدان العالم هذا الحق. وعلى العالم العربي أن يعود إلى بحث القضايا الأساسية بنظرة جديدة ليواجه هذه التحديات الثلاث بموضوعية ـ الحداثة الغربية ـ النظام الدولي الجديد ـ عالم السوق، وهذه تمثل التحديات الخارجية، أما تحديات الداخل فيتمثل أهمها في ثلاث أخرى هي أولا، مسألة الإسلام السياسي والتطرف وثانيا قضية الديمقراطية وثالثا دور العلم والمعرفة في تكوين الهوية الثقافية للمجتمع وتجديدها. ويتعين أن يسعى العالم العربي إلى الإجابة عن التساؤلات الخاصة بإعادة النظر في المرجعيات، وتحليل ودراسة قضايا لا نستطيع تجاهلها إذا كنا نريد أن يكون لنا بالفعل عالم عربي غدا.

صحيح أن المشاكل اليوم معقدة؛ إذ أن تكوين المواطن، والرأي العام، يقومان أساسا على وسائل إعلام تتجاذبها ثلاث سلبيات، كونها، أي وسائل الاتصال الجديدة، تتحرك على أساس السرعة والتجارة، وهذا لا ييسّر

بطبيعة الحال شرح مختلف الإشكاليات والتحديات وفهمها. كما أن كلاً من وسائل الإعلام العربية والأجنبية تستعمل مصطلحات ومفردات ومفاهيم خاصة بكل عالم وهذا أمر يزيد من صعوبة المهمة، كما أنه لا يسمح بالحوار الحقيقي، وفهم قيم الغير. بالإضافة إلى أن بعض وسائل الإعلام تفضل الأحداث المشوشة الصاخبة كالعنف الشديد غير الطبيعي، بينما تهمش حقيقة الشعوب، وصوت الأغلبية. فهناك دائما من يفضلون ـ عمدا ـ منطق الحرب، والنزاعات على منطق السلام والتعايش والتبادل.

إننا لن نستطيع أن نواجه التحديات والتهديدات الجديدة بدون فكر معمق مستقبلي وإصلاح حقيقي داخل مجتمعاتنا، إن المطلوب في مواجهة تحديات الداخل والخارج هو أن نتعلم كيف نميز بين الأمور، وأن نتعلم أيضا كيف نواجه الخطر قبل فوات الأوان، لأن التهديدات الجديدة، لها وجوه جديدة وأقنعة مختلفة.

إن العالم العربي الإسلامي غدا يمكن أن يساعد العالم على الإبقاء على حق التعددية الثقافية والعدل الاجتماعي والإنسانية التي لا تبيع ذاتها وكيانها بأبخس الأثمان في إطار زمن السرعة، وسيطرة المال، إن الخطورة على العالم العربي هي أن يجد نفسه غير حديث مواكب للعصر ولا حريص على أصالته. أي لا يعرف كيف يحقق التوافق والانسجام والتكامل بين قيم الأصالة وقيم التقدم، ولا كيف يتبين التحديات والخطر.

فما هي السبل والوسائل التي تمكننا ـ نحن العرب ـ من مواجهة تحديات القرن الحادي والعشرين، عالم الحداثة، حتى يكون لنا عالم عربي غدا؟

الإســلام والحـداثــة

إن الأمـر الأسـاسي الـذي مكن العـرب بالأمس من المشـاركـة في الحضـارة الإنسـانية وصنع أول حـداثة حقيقية في تاريخ البشـرية، هو الرسـالة السمـاوية ومفـهـومهـا المتـفتح، على عكس مـا يظن البـعض أنه يجب التـخلص من كل التقـاليد الدينية للوصـول إلى الحداثة أو الذين يدعـون، على عكس ذلك، إلى التطبيق الحـرفي للشـريعـة. ومن ثم فـإن طريق حـمـاية العـالـم الإسـلامي من الانزلاقات والانـحرافات والمخاطر يجب أن يمر بالحل العقلاني، الذي يتـمثل في تحقيق الانسجام بين قيمنا الروحية وقيم العالـم المتغيرة.

إن الحداثة هى من أهم التحديات التي يواجهها عالمنا العربي اليوم. وها هو بعـد خمسة عشر قرنا من نزول القرآن، يعيش أزمـة قيم، نتيجة لتعقد العـالـم اليـوم، وعـدم التـوجـه السليم، ولكي لا تـضـيع هويتنا، فـعلى المسلمين أن يوجدوا توازنا بين الأصالة والحداثة، ولابد بداية من الوعي بالرهان، والعمل على إقامـة مجتمع يدرك أهمية توازن قيم الأصـالة والمصير، وذلك من خلال إعـادة قراءة القرآن بعيون اليوم، وربط خيوط الفكر العربي والفكر الغربي، بالإضافة إلى كافة الأنشطة الأخرى التي تيسر التقارب والتعايش والتعاون بين الشمال والجنوب، والاستفادة من هذا النسيج، ومن هذه القاعدة المتينة.

إن التحكم في العلم والمعرفة، هو التـحكم في المنطق، والفكر العـميق، وفي المنطلقات الجوهرية، وما تبقى فهو مجرد مكمل مادي.

وكلنا نلاحظ اليوم قلة المفكرين الذين يجمعون بين المعرفة بالقرآن وبالعلوم الحديثة في نفس الوقت. كما أنّ الإنتاج الثقافي العربي غني في جوانبه الأدبية

قليل في مجال الفلسفة والمنطق والفقه، وبالمفهوم المعاصر ثمة قلة في المفكرين على الرغم من المجهودات الكبيرة التي بذلت في مجال العلوم، وقد كون العالم العربي في هذا الإطار رصيدا من المهندسين والخبراء، ولكن المفكرين بالمعنى الحقيقي والعميق، ظلوا ندرة وقلة، فقد ظلت المجهودات والأفكار محصورة في الأدبيات أو تقليد الغرب. ولذا فرغم عبقريتهم، والنتائج الإيجابية التي توصلوا إليها، في الحياة والمجتمع، فإن تأثيراتهم لم تكن مصيرية وفعالة على مسار الزمن وحياة الشعوب وحركتها.

إن القضايا التي أثارتها الحداثة تبدو وكأنها مستوردة وغريبة علينا. والنظرة الخاطئة إلى الحداثة تتمثل في اعتبارها مجرد غزو ثقافي أو عملية لتذويب الشخصية، إذ كانت نتيجة ذلك أن الحداثة لقيت عند البعض رفضًا كاملاً، وهو الخطأ الذي يحاول البعض تكريسه، عبر رفض التقدم، والتستر بالدين والانعزال عن الحياة كلية وهذا أمر خطير، يزيد الإشكالية تعقيدا، ويوجد غموضا بين ما هو ديني وما هو دنيوي. بينما هناك آخرون يدعون إلى الفصل التام بين الدين والدنيا واعادة قراءة القرآن بوسائل علمية، تأخذ بعين الاعتبار التجربة الغربية، بل وتقدمها كنموذج وحيد يحتذى به. وذلك مجاراة منهم لمنطق عالم الحداثة الذي يفصل تماما بين ما هو ديني وما هو دنيوي، بل، أكثر من ذلك، يرفض كلية ويدمر كل ما لا يتفق مع قواعد عالم السوق والتجارة.

واذا كان دعاة الماضي ينادون بالتطبيق الحرفي والشكلي فإن موقفهم سلبي لا يتصدى لتحدي الحداثة كما أن دعاة الفصل بين الدين والدنيا لا يروون ظمأ الزمن الحالي المتعطش إلى إحياء هوية الشعوب ذات التاريخ والماضي العريق وإلى فهم معنى الحياة ومغزاها.

إن النفس الإنسانية لا تشبعها الماديات وحدها، وهي تواقة دائما إلى فهم المعنى الحقيقي للحياة، ويجب أن نبدأ برفض هذين الاختيارين اللذين يؤديان إلى الفصل بين الدين والدنيا أو الغموض بينهما، وإلى كل ما يؤدي الى

الإغلاق على الشعوب في كهوف مظلمة. إن المغالاة في فصل الدين عن الدنيا، أو الغموض بينهما أمر لا يقدم حلولاً لمشكلات الساعة. إن هناك في تاريخ المجتمعات العربية مفكرين ورجالاً مؤمنين أضاؤا عصرهم بنور القرآن، وذلك بفضل الاجتهاد والعقلانية والتفكير الموضوعي، والذكاء المستنير، وهذا هو العمل الذي ينبغي أن نحذو حذوه ونسير على نهجه، خاصة ونحن نواجه اليوم تحدياً غير مسبوق على امتداد تاريخ الإنسانية، وهو أن هذه الحداثة ـ في جوهرها ـ تهدف إلى القضاء على كل الثقافات وكل الهويات تمهيدا لفرض نموذجها الوحيد المتمثل في عالم السوق، وهذا أمر يهم شعوب الأرض قاطبة، والشعوب العربية الإسلامية بصفة أخص.

وينبغي بادئ ذي بدء أن نحدد بوضوح تلك السبل التي من شأنها أن تعيننا ـ نحن العرب ـ على مواجهة تحديات الساعة جميعا.

أولا، لاشك أن أول هذه السبل هو الإسلام الذي يقدم سلما واضحا للقيم ولأولويات الحياة، ذلك الدين الذي لم يزل هو الرباط الأساسي بين مختلف عناصر المجتمع، والذي يعد ركيزة أساسية لقيم المجتمع العربي، بل ويعطي معنى وقيمة للحياة بآمالها وتطلعاتها. ولكن مجرد التمسك بالدين في الحياة ـ رغم أنه أمر أساسي ـ ليس كافيا لتحقيق التقدم والنمو والتطور ومجابهة كافة المخاطر، بل يلزم مداومة الاجتهاد والتجديد مواكبة للعصر ووفاء بمتطلبات الحياة في كل زمن وجيل.

ثانيا، اللغة العربية، وهي إحدى اللغات القديمة النادرة التي بقيت حية عبر القرون، قادرة على التعبير الدقيق عن مختلف العلوم. وهذه اللغة التي تجمع العرب جميعا هي عنصر أساسي في الهوية العربية، وهي متفتحة على مر الزمان ـ إلا أن تمسكنا بهذه اللغة العربية ينبغي الا يتحول إلى انغلاق يحول بيننا وبين التفتح ومواكبة العصر.

ثالثا، إن لدينا ميراثا طويلا ممتدا من النضال ضد الاستعمار بمختلف أشكاله، وذلك في إطار تمسك العربي بخصوصيته التاريخية والثقافية وبعزته وكرامته وسيادته، غير أن هذا الميراث الثمين ينبغي ألا يتحول إلى مفهوم ضيق لفكرة الوطنية يمكن أن يصل في مغالاته إلى حد الظن بإمكانية الاكتفاء بالذات والاستغناء عن الآخرين ومن ثم الاستغناء عن العالم الخارجي، بل يتعين التفتح على الغير حتى لو كانوا أعداء الأمس.

رابعا، إننا نحتل موقعا جغرافيا وسطاً في هذا العالم، مما يجعلنا قريبين جغرافيا من الغرب ـ الذي هو مركز الحداثة الحالية بإيجابياتها وسلبياتها ـ نتعايش معه دون تناقض كبير رغم ما يكتنف هذا التعايش من صعوبات ومشكلات، إلا أن هذا التقارب الجغرافي والتاريخي مع الغرب لا ينبغي أن يؤدي إلى التقليد والأخذ الأعمى عن هذا الغرب ومن ثم إلى ذوبان هويتنا وضياعها.

خامسا، إن العالم العربي يمتلك من الثروات والموارد الطبيعية والبشرية ما يمكنه من الانطلاق نحو التنمية والتقدم. بيد أنه يتعين وضع سياسة اقتصادية تراعي خصوصيتنا وظروفنا بحيث لا تؤدي إلى إهدار طاقاتنا الاقتصادية أو المساس بالعدالة الاجتماعية التي هي أساس من أسس ثقافتنا.

وبعد أن أوضحنا سبل مواجهة تحديات الساعة، وأولها الإسلام، نعرج الآن على بيان ما في الإسلام من عناصر الحداثة الأصيلة.

ويمكن أن نتكلم عن حداثة الإسلام على أساس اعتبارات عدة تتفق في جانب منها مع حداثة الغرب وتختلف في جانب آخر.

أولا، القرآن الكريم يركز قبل كل شيء على مسئولية الناس جميعا أفراداً وجماعات، وذلك هو الاهتمام الذي يوليه الإسلام لأن تصبح الإنسانية حرة ومسئولة عن تاريخها، ويشير هذا إلى المكانة العالية لمسألة الحرية والتي تفوق كل ما عداها، وهذه بالطبع من أهم سمات الحداثة الأصيلة، لكن الإنسان لا

ينبغي أن يوظف حريته هذه في الأغراض الدنيوية فقط أي لتحقيق التنمية وللتجارة ولكن أيضا للتأمل والعبادة، والسعي الحر نحو فهم سر الحياة ومغزاها وغايتها ومعرفة حقائق الأشياء، فالحداثة الأصيلة، في الدين الإسلامي، هدفها، إذًا، تكوين الإنسان الحر، إنها رسالة كل الأنبياء والرسل الذين يقترحون معنى للمجتمع تكون فيه الأولوية لقيمة الإنسان الحر.

لقد جاء الإسلام ليدعم معنى الحرية هذا، و ينشيء انسانًا جديدًا يكون مفهوم المسئولية الإنسانية أمرًا محوريًا في تكوينه، رغم أن مفاهيم أخرى مثل القدر والإرادة الإلهية لها مكانة أساسية في الثقافة الإسلامية.

والحرية في مفهوم القرآن الكريم أمر أساسى، وهي تقوم على التوازن بين الحقوق والواجبات، والإيمان والعقل. فالعقل الذي يفكر ويعمل بصورة حرة يشهد للحقيقة، و البعدان، التفكير والإيمان ليسا متعارضين ولكن متكاملين، كما يوضح ذلك بقوة الفيلسوف العربي إبن رشد حيث يقول: «إن الحقيقة لا يمكن أن تكون مخالفة للحقيقة بل تتفق معها وتشهد لصالحها».

والوحي قليلا ما يأمر، ولكن يوجه ويقترح، لا يلزم ولا يفرض ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ** ﴾ وهو مبدأ أساسي في القرآن الكريم، يُوجد لدى الإنسان حالة تفتح عقلي قابلة للتطور بحرية وباستمرار، ليتحمل مسئوليته الذاتية، وهذه هي الميزة الأساسية للحداثة الأصيلة التي يطمح إليها الإنسان، ولذا فإن كثيرًا من العلماء يعرفون الإسلام بأنه دين مسئولية، أما من يستعملون الدين لأغراض سياسية وتجارية فيركزون على الممنوعات والمحرمات ويمارسون العنف وهذا تناقض صارخ مع معايير الحرية. خاصة أنه لا كهنوت في الإسلام ولا واسطة بين العبد وربه، ولاريب أن هذا من العناصر الأساسية للحداثة الأصيلة.

ثانيا، الإسلام موجه إلى الناس جميعا بدون تفرقة عرقية، أوثقافية أو طبقية، وهذه أيضا سمة الحداثة الأصيلة، والقرآن الكريم وسنة رسول الله

ﷺ ينبهان إلى أنه لا تعارض بين العالمية وكل من الخصوصية والتضامن والأخوة. الإسلام عالمي لكونه أيضا يلخص المعطيات المهمة في تاريخ الأديان السماوية وهو يؤسس أمة وسطًا حيث يتم الصلح والتوفيق بين الطبيعة الإنسانية والثقافة، والأمثلة كثيرة لتطبيق هذا على امتداد التاريخ الإسلامي، والحياة في الأندلس تحت راية الإسلام هي المثال الأشهر للحضارة المستنيرة، الحداثة الأصيلة تعني أساسا كل ما هو متفتح ومتطور.

ثالثا، الإسلام حديث، لأن هدفه هو السلام بين الأفراد والشعوب، مع احترام كل أنواع التعددية، وكلمة الإسلام تتفق فى جذرها اللغوى مع كلمة «السلام» وكون الإنسان مسلما معناه أن يكون في حالة سلام أو الانصياع لمنطق السلام، وهدف الحداثة الأصيلة هو القضاء على العنف. كذلك الحال بالنسبة للإسلام الذي يهدف إلى أن يتحكم الانسان في التوترات والاضطرابات الإرادية أو غير الإرادية التي يمر بها كل مجتمع وكل فرد. والمسألة ليست أن يتصرف المرء كملاك، وإنما المسألة هي اليقظة والإرادة والرغبة الحقيقية في السلام تجاه الذات وتجاه الغير، وهذه الخاصية للإسلام تشكل أحد العناصر التي تسمح بنظام حداثة أصيل يتعارض مع الحداثة الحالية في بعض جوانبها.

رابعا، الإسلام باستطاعته أن يكون عصريا، وهذا بقيمة لغته العربية، حيث ترجمت إليها الفلسفة الإغريقية، والتي نقل جزء منها الى أوروبا باللغة العربية، وأيضا بما تحويه من إبداع علمي يتمثل في الكتب المنطقية للكندي والفارابي، وإبن سينا وابن رشد، والأعمال العلمية والجبرية وعلم الفلك وغيرها فلا يمكن لأحد نفي الخاصية العلمية بمعناها الحديث للغة العربية. وأيضا القواعد والخصائص اللسانية وطريقة كتابة اللغة العربية تسمح بالعمل غير المحدود للعقل، والفكر والعلوم والفلسفة، مهما كانت ضرورة المراجعة، في مجال التطور وإبداع كلمات خاصة بكل حقبة، وضرورة التكيف مع

التقدم التقني، لقد جاء القرآن الكريم باللغة العربية موضحا أن إعجازه يكمن في خاصية عدم إمكانية تقليده. وهذا يرجع بنا إلى فكرة النظر للعالم الذي يعكسه كمعجزة. فاللغة العربية هي مرآة العالم وموقع منطق الوجود.

خامسا، العلاقة بين الرجل والمرأة طبقا للقرآن الكريم تسمح بحداثة أخرى أصيلة فالنص القرآني موجه إلى ﴿الرجال والنساء﴾ ﴿للمؤمنين والمؤمنات﴾ وليس، فحسب، تحت لفظ «رجل» والذي يشمل بصورة غامضة الجنسين. والمساواة بينهما منصوص عليها عدة مرات، والحداثة الغربية تدعي بأنها هي وحدها التي حققت حرية المرأة، بالرغم من أن هذه المكتسبات جديدة ومليئة بانحرافات مقلقة. بينما المرأة في الإسلام تتمتع بحقوق أساسية منذ خمسة عشر قرنا، مثل الاستقلالية الاقتصادية والمشاركة السياسية، ومن أهم جوانب الحياة التي يجب أن تولى عناية خاصة تلك العلاقة الخاصة بين الرجل والمرأة، وحسب الثقافة الإسلامية، فهي علاقة طبيعية بين كائنين، متساويين من الناحية الأخلاقية، متكاملين على المستويين الطبيعي والاجتماعي، ورغم التقدم في التحليل النفسي، فإن العلوم الحديثة لم تزل مضطربة إزاء مسائل، الزوجية، و«الحب» و«الأمومة» بمعناها الشعري والطبيعي ومما زاد هذه الأمور تعقيدا النظر اليها بمنطق الأسواق والتجارة والإباحية، وإن كنا لاننكر وجود بعض المشكلات الخاصة بوضع للمرأة وحقائق أخرى اجتماعية، تشهد بأن الوضع مأساوي عند بعض المسلمين والعرب.

والنضال ضد التقاليد النفسية والاجتماعية التي تنتقص من قيمة وعمل المرأة، يسمح كل يوم بكشف بعض الانحراف في التطبيق في المجتمعات العربية بما يتناقض مع تعاليم الإسلام.

إن الاسلام والثقافة العربية يقومان على الأخلاق بصفة أساسية، وهذا ـ في ذاته ـ سلاح قوى في مواجهة عالم الحداثة والسوق.

إن تميز الإسلام يجب أن يكون سندا لنا على مستوى مواجهة التحديات والمتطلبات العالمية، وخصوصية الإسلام ليست أمرا هينا أو غامضا، إن التاريخ منذ خمسة عشر قرنا، رغم الصدامات والهوة التي تفرق عالمي الشمال والجنوب، يشهد على التقارب بين الشعوب «العربية» والشعوب «اليونانية» و«اليهودية»، أي الغرب، ويدحض كل الأطروحات التي تجهل أو تتجاهل هذا.

ورغم أن الغرب منذ قرون كان قائما على الحضارات اليهودية والإسلامية والمسيحية، فإن الغربيين كانوا قد أنكروا دور الإسلام وفضله، وهو ما يعطي شكلا من أشكال نزع السامية عن التاريخ وهو أيضا خسارة لا تقدر في إمكانية فهم رأي آخر ربما يقترب أكثر من الحقيقة المنطق، وإن الحروب الصليبية والاضطهاد الذي تعرض له اليهود على يد الغرب كان بعض مظاهر هذه الحركة المشؤومة.

والعالمية تسير اليوم بخطى عملاقة، وهي تسحق في طريقها كل الثقافات والهويات تدريجيا، وفي نفس الوقت فإن هناك قوميات تطالب كل يوم بحقها في الاختلاف، والإسلام لا يشكل استثناء، بل، إنه يعتبر رمزا للمقاومة. غير أنه يمكن توجيه انتقادين في هذا الخصوص، انحرافات الذين يوظفون الدين لأغراض سياسية ويرفضون الحداثة، ومحاولات تهميش المدلول الروحي للإسلام باسم التقدم، وهنا يجب أن نتساءل عن ماهية الحداثة التي نبتغيها؟ وهل يمكن بهذا أن نواجه عالم الحداثة والسوق الذي يفرض نفسه نموذجا وحيدا؟ خاصة أن الهوة بين النظرية والتطبيق في دار الإسلام، كما في الغرب، تبدو كبيرة.

ويبقى أن نتفق حول أسباب مشكلات الحياة المعاصرة وصعوبات فهم هذا العالم وضرورة احترام تعددية الثقافات الحية. وبدون أن نحمل الغرب كل مصائب العصر الحالي، فإن انتقادا ذا مغزى فلسفي يفرض نفسه لذلك النمط المهيمن الذي يقدمه لنا عالم الحداثة والذي يطرح عدة مشكلات أساسية.

تساؤلات عن الحداثة

إن العالم العربي يعد آخر قلعة تقاوم بصفة شرعية باسم التاريخ والثقافة الحية وهو، كباقي الشعوب التاريخية، قد ساهم في بناء الحداثة، فهل سيكون هنالك عالم عربي حديث غدا؟ أم سيكون ذلك مجرد فولكلور وممارسة سطحية وصورة تعكس الماضي فقط وتتوقف عنده؟

إن العالم الحديث يدمر تدريجيا كل الثقافات الوطنية، ولقد سقطت الكثير من الثقافات في العالم أمام الحداثة، بالرغم من بقاء بعض الأفكار والتقاليد، ولكنها في حقيقة الأمر ليست منسجمة مع العالم المعاصر، كما أنها غير مؤثرة في واقع الحياة، وهناك أيضا اعتبارات أخرى هي التي تقرر شيئا فشيئا نمط حياتنا، والتي تعد خطرا ماحقا يهدد هوية الإنسان وذاتيته بل وإنسانيته ذاتها، فالحداثة تفرض نموذجًا وحيدا على العالم كله.

ويعني هذا أن الكائن العربي في خطر، بالرغم من أن نبض الإنسانية لايزال موجودا فيه رغم كل المصائب والمصاعب التي يتعرض لها. وبوسعنا أن نقول إنه لا توجد اليوم حضارة شرقية أو غربية، والمطلوب منا هو الحوار للوصول إلى حضارة إنسانية تجمع الصالح من الثقافات جميعها. ولكن المشكل هو أن العالم الحديث يرفض كل الثقافات والاختلافات. وفي نفس الوقت نجد أن بعض العرب يرفضون الحداثة كلية.

إن الحداثة ـ وكذلك الممارسات الثقافية والاجتماعية في العالم العربي ـ بحاجة إلى أن تدرس بعمق، حتى نتعرف على ما بها من إيجابيات وسلبيات،

وذلك أمر ممكن إذا ما توفرت حرية فكرية حقيقية، وأيضا وسائل البحث العلمي بالجامعات ومراكز البحوث والمكتبات، وكل المؤسسات الثقافية والمعرفية. وهذا أمر ينبغي أن يكون له الأولوية، أعني الإنتاج والإبداع العلمي والمعرفي، وطرح إشكالية العالم العربي والبرهنة على أنه قادر على أن يكون عالميًا (Universel) الأمر الذي سيمكنه من بناء مستقبل له معنى ووجدان. وهذا معناه أيضا أن الاكتفاء برفض الحداثة أو الوقوع في أسر التقليد الأعمى، يمكن أن يشل إمكانيات العالم العربي، ويعوقه عن تحقيق ضالته المتمثلة في إيجاد انسجام بين قيم الأصالة وقيم المصير، بين معطيات الداخل المتمثلة في هويتنا وتراثنا ومعطيات الخارج المتمثلة في نمط الحداثة الذي يقدمه الغرب.

إن العالم العربي لا يمكن أن يحقق أي نجاح مالم يقدّر النخبة الثقافية والعلمية والفكرية والفنية، بل لابد أن يضع في قمة سلم قيمه رجال العلم والمعرفة. ذلك أن هذه النخبة هي القادرة على التوصل إلى إيجاد ذلك الانسجام الذي نتوق إلى تحقيقه بين قيم الأصالة وقيم الحداثة، وإن كان هذا مشروطا بأن تكون هذه النخبة وثيقة الصلة بالقاعدة الشعبية العريضة غير منفصلة عنها.

المشكل كبير لأن الحداثة في جوهرها تلغي كل الثقافات والخصوصيات، وتحدي نقد الواقع العالمي يتطلب منا ثلاثة أمور، على الأقل، في نفس الوقت هي الذاكرة و الموضوعية، والبديل.

أما الذاكرة فهي أن نواجه المستقبل وكل التحديات بيقظة وصحو وشجاعة دون أن ننسى تاريخنا وقيمنا، ويجب أن نعترف أننا لم نكتب كثيرا، كما أننا لم نتحدث بصورة كافية للعالم وللأجيال الجديدة، عن مفهومنا للحياة من جهة وما لقيناه من المعاناة والعدوان والخسائر من جهة أخرى نتيجة التدمير والاستعمار والاستيطان والاستغلال البشع لثرواتنا والذي فشل في تدمير

هويتنا. فمن المهم إذا الاحتفاظ بذاكرة حية، حتى لاننسى الأصالة ودروس الماضي ومحنه، وحتى نبقى فطنين يقظين متنبهين أمام التهديدات الجديدة، وأيضًا، حتى يفهم العالم لماذا كانت الهوية والكرامة والحرية والسيادة في عيوننا أغلى من كل شيء. وأنه لا تفاوض ولا تجارة في هذه المسألة، وليس من باب تزييف التاريخ والأحداث القول بأننا كنا أكثر الشعوب المعتدي عليها، وكنا مظلومين أكثر منا ظالمين، وحتى لو كانت هناك أخطاء شنيعة قد ارتكبت من قبل البعض منا أفرادًا أو مجموعات، متناقضة مع قيمنا، فإننا بالاجتهاد الحقيقي، وبالإبداع الفكري المتفتح، وبالفهم المستنير للإسلام نستطيع أن نضع حدا لصور الظلام والظلم كليهما.

والموضوعية هي عمل المنطق، والفلسفة، والاجتهاد وكل العلوم الاجتماعية والإنسانية. ولابد أن نشجع العقل النقدي مع الاستفادة من المنجزات العلمية في العالم. إذ لافائدة من أن ننقد بالذاتية والعاطفة والأفكار المسبقة، خاصة أن الحداثة تستعمل وسائل العلم والتكنولوجيا والمال للقضاء على كل ثقافات العالم.

وأما البديل، فهو الإبداع، والاقتراحات والمشاريع العربية. إن المقاومة ورفض الأفكار الأخرى التي لا تنسجم مع قيمنا، يتطلب منا بدائل وأفكارًا جديدة، مؤسسة على الواقع، ذلك أنه ينبغي علينا ألا نضيع الوقت في الحديث عن الغزو الثقافي دون أن نشجع أصحاب الإبداع في كل مجال لكي يوجدوا بدائل تسد الفراغ الفكري والثقافي وتواجه الأفكار الوافدة الغازية .

ولكي يكون « الغير» عادلا في تعامله معنا يجب أن نصحح أسلوب خطابنا وأفعالنا . إن الشعوب العربية والإسلامية تمثل إنسانية حقيقية، ولكنها اليوم في خطر داخليًا وخارجيًا، بسبب ضعف الثقافة الحية الأصيلة والمعاصرة في آن واحد والتي تخاطب العالم المعاصر بلغته، وتقدم له الصورة الحقيقية لماهية الحضارة العربية الإسلامية. .

إن الفكرة السائدة في العالم اليوم عن العرب والمسلمين هي أنهم متوحشون ومتطرفون ومتخلفون، وهذا معناه أننا، من وجهة نظرهم، نستحق التدمير الثقافي وفرض نموذج آخر. وينبغي العمل الجاد على تصحيح هذه الصورة الزائفة المخالفة للواقع والحقيقة.

إن روح المقاومة الكامنة فينا، وثقافتنا القومية العربية الأصيلة لا بد أن تجعلنا نعبّر بأمان واطمئنان عن عدالة قضيتنا بدون أي هاجس خوف، وبالمقابل فإن الغير يجب ألاّ يخاف من عالم عربي حر، متطور ومعاصر فخور بأنه مسلم، يتصف بالحداثة والأصالة في آن واحد. وهذا يبدو مستحيلا اليوم في نظر العالم الحديث.

والآن لنسأل ما هي تلك الحداثة الأصيلة التي تمثل التحدي الرئيسي الذي يواجهنا؟

في جانبها النظري، وفي مجالها العلمي، الحداثة الأصيلة هي العمل اللامحدود للمنطق. وهي في المجال السياسي، ممارسة الشعب لحقه في تقرير مصيره واختيار المسؤولين والبرامج والمشاركة في الحياة العامة، وهي في المجال الاقتصادي التركيز على أهمية العمل وضرورة تقسيمه.

ولكن هل هذا هو ما نعيشه؟ وهل ثمة بديل؟ إن الحداثة الغربية اليوم لها وجهان مختلفان، أحدهما إيجابي والآخر سلبي وخطير وإذا كان الأول يخفف من معاناة الناس ويزيد من ثرواتهم ويطلق طاقاتهم ويحررها، فإن الثاني يهدم، ويتناقض مع بعض قيم الحياة، ومع طبيعة الشعوب نفسها، إن الفكر في الغرب، لايرى بديلا لهذا النموذج الحداثى، بل لا يسمح بأي اختلاف أو تعددية في الثقافة. اقرأ مثلا (هوسرل) (Husserl) الذى كتب في منتصف هذا القرن يقول «هناك في العالم المعاصر نموذج سائد وحيد، تسعى كل المجموعات الإنسانية، إلى الاقتراب منه أوتقليده، وهوما يمكن تسميته الرغبة في ـ الأوربة ـ بإلحاح أكثر».

وكل شعوب العالم اليوم، ومنها الأوروبية، هي في مواجهة مع عولمة العالم الحديث، الذي يراجع ويدمر الثقافات الخاصة بل ومعاني الحياة، بل أكثر من هذا، فإن عالم الحداثة يظهر في الشكل السياسي في صورة النظام الدولي الجديد، وفي المجال الاقتصادي في شكل نظام السوق، وهما النموذجان اللذان يتناقضان مع سيادة الشعوب وهويتها.

واذا كان هدف الحداثة الأصيلة هو تحقيق استقلالية الإنسان والعقل من كل التأثيرات الأخرى، من عاطفة وذاتية وتقاليد، وكل ما يمكن أن يفرض سلطة قاهرة، أو استعمارا، فإن ما يسمى بالنظام الدولي الجديد وعالم السوق يعد أمرا مناقضا لتحقيق هذا الهدف رغم أن الغرب يحاول أن يفرض علينا هذا باسم الحداثة. إنه يضعف مبدأ استقلالية الشعوب، والإنسان، وفي الوقت نفسه نجد أن المرء يشعر بالقيد والأسر شيئا فشيئا، بفعل هذا النموذج للعالم الحديث الذي يعد الحداثة الوحيدة.

إن الشعوب العربية خاصة والعالم الثالث عامة على يقين من أنه اذا كان الغرب اليوم يسيطر عليها بشكل أو بآخر، فإن مرد ذلك إلى معرفة ذلك الغرب ودرايته وخبرته في استعمال نتائج العقل والتكنولوجيا وسيطرة منطق السوق، وبعد أن استنزف كل خيرات هذه الشعوب، فإنه يريد أن يغير قيمهم بتعميم التجارة في كل المجالات، حتى في المستوى المعنوي والروحي والثقافي والإنساني وهو ما يشكل خطرا ماحقًا ويعيد النظر في القيم.

إن أزمة القيم بكل أشكالها في المجال الثقافي، وسيطرة المال في المجال الاقتصادي، وضعف الممارسة الديمقراطية في المجال السياسي، هذا كله يتطلب، بل ويفرض علينا التفكير في حداثة، وتقدم آخرين. . فهل ذلك ممكن التحقيق؟.

إن النظر في المسألة بفكر ناقد حر، وبموضوعية وحكمة، يدعونا أن نأخذ بعين الاعتبار بعض إنجازات الفكر الغربي، وما حققه خلال خمسة قرون

ماضية، أي من الفيلسوف ديكارت إلى اليوم، مع إتاحة الفرصة للنقد البناء الذي يقصد إلى تعديل هذه الحداثة وتكييفها بحيث تتفق مع روح ثقافتنا وقيمنا الأصيلة.

يقول الأستاذ جاك بيرك «إن الثورة التقنية يمكن أن يحققوها (العرب) بل أكثر من ذلك، يمكن أيضا أن يعطوها الصيغة التي تتماشى ومشروع مجتمعهم».

إن قضية الحداثة، يمكن أن تطرح، كما يمكن التفكير فيها بأية لغة كانت، وفي أي ثقافة حية. ومن عجب أن الغرب هو الذي يطرح وحده الوجه الوحيد للحداثة، مع أن الأمة الإسلامية قد شاركت في بناء الحضارة الإنسانية بل وفي تقديم الحداثة ذاتها بحوارعميق مع الفلسفة اليونانية، ومن ثم فليس من حق أحد أن يحتكر هذا التحول والتغيير إلى نموذج وحيد للحداثة الحالية.

وعلى هذا الأساس فإن أغلبية المفكرين المسلمين قد حاولوا، منذ قرون، إبراز أهمية التكامل بين الإيمان كما جاء في القرآن الكريم، من ناحية، والفلسفة اليونانية. من ناحية أخرى. ورغم أشكال الرفض للفلسفة من قبل تيارات إسلامية أخرى، متخوفة من حرية التفكير بلاحدود، ومنطق أرسطو، فإن أغلبية الآراء في العالم العربي الإسلامي، ترى أن فكر سقراط وأفلاطون وأرسطو في المنطق والفلسفة لم يهدد ثقافة الإسلام مهما كانت الاختلافات. ولكن الفرق بين الفكر اليوناني وثقافة الإسلام تحول شيئا فشيئا الى اختلاف متواز، نتيجة لغياب المفكرين الإسلاميين بسبب مختلف أنواع الظلم والضغوط الداخلية والخارجية، ومن جهة أخرى بسبب الاتجاه والتفسير المادي الذي أسبغه الغرب على فكرة الحداثة، أما الثقافة الرومانية اليونانية اليوم وفي شكلها الحديث، فإنها تهدف إلى القضاء على كل الثقافات والهويات الأخرى بدون استثناء سواء في الجنوب أو في الشمال.

وهذا يعني، بالنسبة لنا كعرب ومسلمين، أننا لا ننتقد الحداثة بسبب طابعها الخارجي والأجنبي، وإنما لأنها تريد إعادة النظر في كل الثقافات حتى الثقافات التاريخية الغربية، وانتقادنا للحداثة يرتكز على أمرين أساسيين.

أولا، الحداثة تريد إعادة النظر في أسس الحياة والروابط والعلاقات الإنسانية.

ثانيا، العرب (الإسلام) قد شاركوا بصورة فاعلة وقطعية في نشأة الحداثة الأصيلة وظهورها. خاصة في المجال العلمي الذي يشكل الركيزة للعالم الحديث، فإن المساهمة العربية تاريخية وأساسية في هذا المجال. فمصطلحات الجبر (Algebre) واللوغاريتم (Logarithme) وغيرها مستمدة من أسماء العلماء العرب جابر والخوارزمي وغيرهم الذين أسسوا هذه العلوم بالإضافة الى عشرات المصطلحات والمفاهيم والكلمات العربية المستخدمة في اللغات العلمية الأوروبية وهي كلها تمثل رموزا للحوار البناء بين ثقافتين مفضلتين ومتميزتين: اليونانية والعربية.

واللقاء بين هذين العالمين والثقافتين هو الذى هيأ لظهور العالم الحديث.

وبيكن Bacon، وباسكال Pascal وديكارت Descartes، ونيوتون Newton وعلماء أوروبيون آخرون، لم يكونوا ليتصوروا أو يفكروا في أشكال جديدة للعلم الحديث بدون مساهمة العلماء العرب. إنه واقع وليس تعصبا أو حنينا إلى العصر الذهبي.

إن الذي تغير وانقلب رأسا على عقب في الفكر الأوروبي الحديث وأخذ مسارا آخر هو النظرة للإنسان حيث ينظر إليه على أنه مركز للعالم، وأداة للتحكم بلا نهاية في هذا العالم، وهذا بالوسائل الحسابية والتقنية، وبإقصاء واستبعاد المفاهيم المعنوية والإنسانية المستمدة من التقاليد والثقافات والرسالات السماوية أو من أي مصدر آخر.

وهذا الاتجاه للعالم الحديث يسعى سياسيا لفرض نموذج في شكل النظام الدولي الجديد، واقتصاديا في شكل عالم السوق.

ومما يزيد في خطوره هذا الاتجاه على العالم الإسلامي بصفة خاصة أن تطبيق ازدواجية المعايير وسياسة الكيل بمكيالين إنما يتم على حسابه، وهذا ليس صدفة إذ يُنظر إلى العرب، بسبب تفطنهم المستند إلى إرثهم التاريخي، أنه بإمكانهم أن يشكلوا حبة الرمل التي تعوق وتعرقل تحقيق الشمولية الكاملة للعالم الحديث. وبهذا يعاني العالم العربي الإسلامي مرتين.

مرة ككل شعوب العالم حيث يخضع للعولمة المتجانسة والتي تدمر تدريجيا خصوصيات الثقافات المختلفة، ومرة أخرى بصفة خاصة كشعوب تنتمي لمنطقة تعد مهبطا للديانات ومهدا للحضارات وباعتبارهم رمزا للخصوصية الثقافية والتاريخية، وكذلك لأن هويتهم لم تزل حية وبارزة رغم كل الصعوبات، وهذا يزعج ويغذي الأحكام المسبقة ضدهم.

فالعالم العربي الإسلامي - في منطق عالم الحداثة - يمثل نموذجا للخصوصية والمقاومة يجب تدميره أكثر من غيره بل والسيطرة عليه حيث يمتلك - بالإضافة إلى كل ما سبق - أهم مصادر الطاقة فى العصر الحديث.

لقد أظهرت حروب تصفية الاستعمار أن الشعوب العربية قادرة على صنع التاريخ. وينتظرها الآن مهمة أخرى هي تقوية بناء دولة القانون، وتكوين مواطن عربي معاصر، حريص على روحه وجوهره، ورافض لسيطرة المادة على كل مجالات حياته.

وثمة مشكلات عديدة تواجهنا ونحن بسبيل إنجاز هذه المهمة. ومن أهم هذه المشكلات إدراك متطلبات الوقت، والعصر، والزمن، والمتغيرات. كما أن وعود تخليص الإنسان من التخلف والانطلاق به نحو التقدم والتطور الحقيقي، لم تزل تعاني صعوبات داخلية وخارجية تحول دون تحقيقها، إننا نعيش كل المشكلات مجتمعة.

سياسية، وتتمثل في صعوبة الممارسة القائمة على الشورى والديمقراطية وتطبيق الحريات العامة، وتكوين ثقافة سياسية، تسهل الحوار، وتدعم احترام الرأي الآخر ومشاركة الشعوب في إختيار المسؤولين والبرامج.

وفي المجال الثقافي، نلاحظ أن الإبداع، لايلبي كل احتياجات المجتمع، وأن الثقافة تعاني من السطحية، والعاطفة والذاتية وغلبة الطابع التجاري نتيجة التأثر بالعالم الحديث.

وفي الجانب الاقتصادي، تبدو أغلبية الدول العربية وقد انتقلت من النظام الاشتراكي أو التقليدي إلى الليبيرالية غير متحكمة في منهج هذا النمط ومنطقه. ودون أن تقيم هذا النموذج على القيم الأصيلة.

فكيف نحقق الانسجام بين الحاجة إلى الحرية والعدالة الاجتماعية في ظل عالم يحكمه المال؟ وكيف نحقق العالمية والتقدم مع الحرص - في ذات الوقت - على قيمنا وأصولنا ومرجعياتنا؟

إن الوضع يزداد خطورة يوما بعد يوم، بسبب تزايد المتطرفين من كل الجهات، وكل من يحولون دون تحقيق مشروع «أمة الوسط» الذي وصفنا به القرآن، وعلينا ونحن نواجه كل هذه المشكلات، والصعوبات الأساسية، أن ندخل في حوار صريح ونزيه مع الآخرين لأن العمل والحوار في كل مجال هما الحل.

ومهم أيضا أن يكون سلم الترقي متاحا للجميع، بمعنى أن نعطي كل مواطن إمكانية التطور والصعود، والرقي في المجتمع، ضمن أطر وشروط وقواعد ومقاييس معينة.

لقد تناول بعض الكتاب. والمثقفين مسألة العلاقة بين الإسلام والحداثة في هذا القرن، كمحمد إقبال، ومالك بن نبي وطه حسين وأيضا عبد الله العروي وهشام جعيط وإدوار سعيد ومحمد الطالبي وأيضا بعض كبار المستشرقين،

ولكن ثمة الكثير من الجهد وإعمال الفكر اللذين يجب بذلهما في هذا السبيل الذي بدأه هؤلاء المفكرون الكبار.

إننا يجب أن ننظر بعمق في قضية الحداثة وننقدها نقدا موضوعيا حتى نتبين ما في الحداثة من مخاطر وأيضا ما في المواقف المختلفة منها من أخطاء.

ونبدأ ببيان ما في هذه المواقف من أخطاء، فالخطأ الأول أن كل الذين دافعوا عن العودة إلى الماضي والأصولية، لم يقوموا بتجديد القيم وتطويرها من أجل التكيف مع العصر. ومعلوم أن كل من عارضوا مسيرة الزمن قد خسروا الرهان.

وهناك الخطأ الثاني، والمتمثل في توظيف الدين لأغراض سياسية وتجارية بهدف الوصول إلى الحكم، وهذا يسيء إلى ما يعتقدون أنهم يدافعون عنه.

أما الخطأ الثالث، والذي يمثل المصيبة الكبرى والأكثر خطورة، فهو استعمال العنف للوصول إلى السلطة تحت غطاء الدين.

كما أن الذين يعتبرون ألا بديل غير الحداثة الغربية العلمانية ويطالبون بفصل الدين عن الدولة، والدين عن الدنيا، يمثلون خطأ ومشكلاً آخر. عالم الحداثة يفصل الإنسان عن كل الأشياء الأساسية ليس فقط عن الدين ولكن أيضا عن الوطن والطبيعة والقيم والسلوك والأخلاق الأصيلة أي عن إنسانيته ذاتها.

وعلينا الآن أن نتبين ما يثيره تطبيق الحداثة الغربية من مشكلات وما يترتب عليها من مخاطر.

ففي المجال السياسي نجد أن اختيار نظام يحقق القطيعة مع الأشكال التقليدية واحتكار السلطة، ويضمن في الوقت نفسه تنمية مشروطة بالممارسة الديمقراطية هو أمر يبدو اليوم صعب التنفيذ، مع أن التاريخ الإسلامي العربي القديم يشهد على الممارسة الحقيقية للحريات السياسية والأخذ بمنهج الشورى وفاء للنصوص القرآنية والعقل.

وفي المجال الاقتصادي، نجد أن توسيع السوق وإعادة ترتيب أولويات الحياة قد زادا دول الجنوب ضعفا، بل إن عالم السوق يهلهل القيم والثوابت لدى الشعوب.

وعلى المستوى الفكري الثقافي، فإن فلسفة الحرص على الحريات بغير حدود تبدو في بعض الأحيان إيجابية، ولكنها في أحيان أخرى تبدو متناقضة مع القيم الإنسانية وطبيعة الإنسان ذاتها.

إن القضية هي أن نساير الزمن، دون تضييع للجوهر والهوية.

إن الحداثة باسم عالم السوق تتحول في الغالب إلى القطيعة الدائمة مع الماضي، خاصة على المستويات الثلاثة التالية، والتي تثير مشكلات أساسية وخطرا فريدا في تاريخ الانسان.

أولا، الحداثة تلغي تدريجيا كل الديانات والتقاليد والثقافة، كما أن نمط الحياة اليوم يبعد ـ شيئا فشيئا عن الثقافات القديمة والأديان رغم كل محاولات الربط بين العلم والدين ـ وأيضا رغم ما يسمى بعودة الممارسة الدينية؛ فإن الحداثة قد وضعت الديانات على قارعة الطريق واطرحتها كلية، فهل يمكن للمسلمين مقاومة هذا الاتجاه بالإبداع وإيجاد البديل رغم سلبية بعض جوانب الوضع الراهن لديهم؟

إن الإيمان بالإسلام يزداد انتشارا يوما بعد يوم، وهذا أمر إيجابي للغاية ولكن لابد من التحكم في اعتبارات المكان والزمان وتحقيق الانسجام بين الدين والدنيا في نهج الحياة، إن المشكلة الخطيرة هنا هي أن الحداثة تهمش كل القيم الروحية والثقافية وتنحيها جانبا.

ثانيا، رغم أن الحداثة تسمح بالممارسات الفردية للحرية، ووجود المؤسسات الشرعية وقواعد الليبرالية، فقد أصبحت تضعف، إلى حد ما، الممارسات الديمقراطية الحقيقية والعلاقة مع الوطن، أن تكون شعبا قادرا على

صنع التاريخ، فذلك معناه أن المواطن هو الذي يقرر مصيره، ولكن ثمة مراكز مالية خفية هي التي تقرر اليوم بدلا منه، وهذه هي المفارقة، أي أن الإله الجديد هو المال، والوطن الجديد هو القرية العالمية، وسيظل المجتمع متجها إليه مرتبطا به كترس صغير في آلة ضخمة، وإلا بقي في حالة بطالة ومعاناة.

ثالثا، إن طابع الحداثة الغربية هو سيطرة العلوم الدقيقة والتكنولوجيا، والتهميش التدريجي للفكر الحقيقي الذي يبحث عن الحق والجمال والعدل في إطار تعددية الثقافات، ومظهر حرية التفكير والنقد هو طرح الأسئلة حول مختلف القضايا، وقد أصبح هذا أمرا صعبا اليوم، ذلك أن الحداثة تتطلب خطابا واحدا، ونظاما واحدا يرفض الاختلاف والتفكير في معنى الحياة والعالم وغيرها من القضايا الأساسية، وهو ما أضعف إمكانية تفكير الإنسان بشكل عميق. وإن السيطرة الإعلامية والسرعة السائدة اليوم هي مثال جيد دال على مانقول.

والسؤال هو كيف نصل إلى حداثة لا تهمش القيم الثقافية والروحية، ولا تضعف الممارسة الديمقراطية وتسمح بإمكانية التفكير العميق والحق في الاختلاف في محاولة فهم مغزى الحياة والعالم؟

إن هدف الحداثة الأصيلة هو تحرير الإنسان، من التقاليد، والخيال، وكل ما يمنعه من التطور والتقدم. . . فكيف يمكن أن يكون هناك مشروع عملي للإنسان والشعوب يحقق هذا كله؟ لا بديل إذ عن اللجوء للعقل كمحرك للتاريخ، ولا وسيلة كإعمال المنطق للتوصل إلى المغزى الحقيقي لهذا العالم والمعنى الحقيقي للحياة مستنيرين، في هذا كله، بهدى الرسالة السماوية ونور القرآن الكريم.

نحن اليوم، إذًا، أمام وضع مختلف تماما عما كنا عليه في الماضي كما أن بعض المفكرين الغربيين يعتبرون أن فكرة أو مفهوم العالم قد انتهى، بل

والأخطر من ذلك أنه لا معنى لهذا العالم فيما يرون، وهو ما يعني أن «اللامعنى» يصبح هنا هو المعنى عندهم، أي أن المعنى عندهم هو أنه (ليس هناك معنى). وأن مقولة نهاية التاريخ ونهاية العالم هي بالمعنى الرمزي ليس إلا، وهذا يفتح المجال أمام سيطرة المال على حساب القيم والأخلاق حيث لم يعد لها معنى إلا بقدر ما تقوم في إطار مقاييس عالم السوق، فما هو مستقبل العالم العربي غداً في إطار هذه الإشكالية؟ وبعبارة أخرى هل سيكون للعالم العربي وجود في ظل هذا الوضع الصعب المتأزم أم لا؟ خاصة أن السوق هو نموذج وحيد للنظام العالمي في ظل الحداثة.

إن مصير الشعوب بصفة عامة والشعوب العربية الإسلامية بصفة خاصة في خطر، فهوية الشعوب في المجال الثقافي، ـ وسيادتها، في المجال السياسي، واستقلاليتها، في المجال الاقتصادي، ـ مهددة بالضياع وعالمنا العربي ينظر إليه على أنه العدو الجديد، وللإجابة عن هذه الحيرة والتساؤلات، لابد من إعادة النظر في المنطلقات الأساسية لثقافتنا بشكل علمي، بما يضمن سلامة هذا النظر وعدم زيغه عن جادة الصواب حتى نستند إلى أرض صلبة ونحن نواجه تحديات عالم الحداثة، وعندئذ يمكن أن نطمح إلى تحقيق حداثة تأخذ بعين الاعتبار قيمنا، مع تفتحنا على الغير في إطار الحوار السياسي والثقافات والتعاون والشراكة. ويتطلب هذا منا أن ننتقد كلا من النظام الدولي الجديد وعالم السوق اللذين يفرضان علينا باسم الحداثة.

الحداثة في صورة النظام الدولي الجديد وعالم السوق

هل يستطيع عالمنا العربي الإسلامي أن يواجه بقوة تحديات النظام الدولي الجديد، مع فجر القرن الواحد والعشرين مستفيدا من إمكانياته التاريخية والطبيعية والبشرية؟

وهل يمكن للعالم العربي أن يقدم أجوبة على ما يثار من قضايا وتساؤلات، وأن يكون منطقة من العالم تتوفر فيها إنسانية حقيقية، بعيدا عن البؤس، والبربريات السياسية؟ وبعبارة أخرى هل يمكن للعالم العربي أن يقوم بدوره المنوط به من أجل التقدم دون أن يضيع ذاتيته؟ إن السيادة العربية اليوم عرضة لخطر جديد بأساليب جديدة بعد أن زال خطر الاستعمار بصورته التقليدية القديمة.

إن النظام الدولي الجديد، بسياسته التي تكيل بمكيالين، وبلغته المزدوجة ومواقفه غير العادلة، يستعمل كل الأدوات، من وسائل اقتصادية وإعلامية، ويستغل التناقضات العربية لتحقيق أهدافه ومصالحه.

إن العالم العربي اليوم لم يزل موجودا قائما ومقاوما ـ رغم سقوط الكثير من الأحلام العربية، ورغم ما يعانيه من جراح ومن ضعف ـ وذلك بفضل الملايين من أبنائه ومواطنيه الذين يتقاسمون قيم حياة مشتركة.

لماذا يريد البعض تهميش دور الشعوب العربية الإسلامية ويعتبرونها بمثابة العدو الجديد، وينظرون إليها على أنها لم تزل في مرحلة المراهقة؟ ولماذا يحاول هذا البعض أن نبقى في منتصف الطريق ولا نصل إلى تحقيق أهدافنا؟

إننا لسنا كما يظن هؤلاء، بل نعمل دائبين من أجل إيجاد حداثة عقلانية، وهم يعرقلون أي جهد نبذله نحو التقدم الحقيقي بأن يمنعونا ـ مثلاً ـ من الحصول على أس معلومات مهمة أو تكنولوچيا فى مجال البحث العلمى، لأننا في نظرهم، كما ذكرنا قبل، مجرد عائق يسير كحبة الرمل، وهذا ما لا يرضيهم ألبتة.

إنه النظام الدولي الجديد الذي يطمح إلى رسم خريطة جديدة تسقط من الحسبان أي مصدر قلق له ولذلك فإنه يستغل تناقضات بلداننا ونقائصها وضعفها من أجل تطبيق منطق السوق، وفرض مقاييس جديدة تناسبه.

فالنظام الدولي الجديد هدفه فرض ضوابط عامة على الأمم والأفراد عن طريق الهيئات الدولية وهذا لا يقتصر على العلاقات الدولية السياسية والتجارية وإنما يمتد ليشمل كل القيم الثقافية والمعنوية والأخلاقية.

وهذا هو الخطر الداهم الذي يهدد خصوصية العالم العربي الذي يعاني من مشاكل جمة.

أولها ضعف الممارسة الديمقراطية الذي لا يسمح بتجنيد الجماهير حول مشروع إجتماعي متطور وبديل، كما أن عدم إسناد السلطة إلى الشرعية الشعبية يضعف من شأنها أمام الضغط الخارجى.

ثانيها الانغلاق على الماضي وعدم وجود فكر نقدي وبناء، الأمر الذي يضعف قدرات المقاومة.

ثالثها الأطروحات الأيديولوجية والذاتية في مواجهة المشاكل، الشئ الذي أدى إلى آمال وهمية ونقاش غير جدي وضبابية.

ومن هنا يجب على العالم العربي العمل بواقعية وبصفة جماعية على كل المستويات، العربية والإقليمية وكذلك على المستوى الدولى، وذلك من أجل

تعديل وتصحيح كل المعطيات التي سيفرضها النظام الدولي الجديد كوجه جديد للإنسانية بكاملها.

إن العالم العربي يمر اليوم بمرحلة انتقالية من التخلف المادي إلى التقدم، وهذا لا يتحقق إلا بالتحكم في هذه المرحلة الانتقالية للوصول إلى هذا الهدف المنشود، مع مراعاة الثقافة السياسية لبلداننا، باعتبارها الطريق الأفضل لتحسين مستوى الجماهير، ومشاركتهم في البناء.

إن المرحلة الانتقالية من التخلف المادي إلى التقدم هي أصعب مرحلة، ويجب أن نعترف بهذا لأننا ننتقل من نموذج قديم إلى نموذج جديد، والحداثة والتقدم واقتصاد السوق كل ذلك يستدعي التكيف والتأقلم والإصلاحات العقلانية، تفاديا للفوضى، وعدم التوازن بين المجتمع التقليدي وسرعة التغيير.

والديمقراطية جد مهمة من أجل الوصول إلى إجماع ووفاق، رغم أن هناك محافظين ومتطرفين يقفون ضد هذا التغيير، والإصلاح والشفافية، إما خوفا من الجديد، وإما حفاظا على المصلحة الخاصة، كما أن هناك آخرين يقفون ضد الأصالة.

إن التسرع والهرولة في البحث عن التقدم يؤدي بنا حتما إلى عدم التمسك بالثوابت (الأصالة) وهذا يجعلنا أكثر ضعفا إزاء النظام الدولي الجديد.

إن التحدي هو كيف نتحكم في المرحلة الانتقالية، ونصل تدريجيا إلى الحداثة الحقيقية للشعب، وضرورة التوصل إلى إنجاز فعال في هذا المجال. إن التحول التكنولوجي هو أمر مهم حقا ولكنه ليس الأهم.

وهناك من يقترح فتح كل الجبهات في آن واحد ـ سياسية وثقافية واقتصادية ـ للتخلص من سلبيات الماضي، وهذا أمر منطقي رغم صعوبته، إصلاح في النصوص والمناهج، إصلاح إقتصادي في اطار الفعالية والعدالة الإجتماعية، وإصلاح ثقافي لضمان الحق في الاختلاف وتعددية الرأى، بينما يفضل البعض

الآخر أن تكون الإصلاحات تدريجية، أي مجال تلو الآخر، وقطاع تلو الآخر، وهذا ـ بدوره ـ أمر غير سهل، إذ يتطلب برنامجا قائما على التدرج.

كما أن هذا التحدي للمرحلة الانتقالية هذه يتطلب وسطاء في المجتمع يدعون له ويوجهون الجماهير نحوه مثل المعلم والمثقف وأصحاب الحكمة والتجربة وغيرهم، وذلك من أجل تسهيل الإجتهاد. وهناك من يتحدث عن ممثلي المجتمع المدنى والسياسى، وآخرون يركزون على التكنوقراطيين، وينسون أن الحل هو في التكامل بين كل هذا، من أجل القضاء على احتكار السلطة ومواجهة المشكلات.

إن النظام الدولي الجديد لم يأخذ بعين الاعتبار لا هذه الاشكالية المتعلقة بالمرحلة الانتقالية ولا خصوصياتنا، بل يريد أن يذيب هويتنا ويضعف سيادتنا. إن النظام الدولي الجديد يريد أن يضعف كل الشعوب، بصفة عامة، والعالم العربي والإسلامي بصفة خاصة مستغلا في ذلك خمس وسائل:

أولا، العولمة التقنية والاقتصادية والثقافية والإعلامية التي تفرض وتملي، باسم الحداثة، قواعدها وقيمها دون احترام خصوصيات كل شعب.

ثانيا، ظاهرة العنف الأعمى والإرهاب، تحت ستار الدين أو أي سبب آخر، والتي تعرقل النمو والتطور.

ثالثا، الإيديولوجية الصهيونية التي تريد بالحديد والنار والدم، والتهديد بأسلحة الدمار الشامل فرض وجودها كقوة إقليمية مهيمنة.

رابعا، الانقسامات بين النظم العربية، والتي تشتت وتضعف العمل العربي المشترك.

خامسا، ضعف ممارسة الديمقراطية والشرعية الشعبية التي تمثل الأساس في بناء دولة القانون.

وإذا كانت الظاهرة الأولى، العولمة، ظاهرة دولية مشتركة تشمل كل الشعوب لأن التقنية والإنتاج العالمي والسوق تفرض نفسها على الكل وتغير نمط الحياة للكل فإن المسائل الأخرى يعتبرها البعض مشكلات خاصة بمنطقتنا، بالرغم من أنها تتعلق بأمن واستقرار العالم كله.

إن كثيرا من النزاعات في نهاية هذا القرن العشرين، يعني الشعوب العربية والإسلامية، من دول آسيا الوسطى إلى البلقان ومن الشرق الأوسط إلى إفريقيا، ويدل على هذا الحصار المباشر وغير المباشر المفروض على بعض الدول العربية.

والنظام الدولي الجديد يهدف إلى السيطرة على كل العالم، غير أن هذا الأمر يعد مستحيلا، وتاريخ الإنسانية شاهد على هذا، إذ إن تسخير القانون لخدمة القوة لا يمكن أن يدوم، وأصحاب النظام الدولى الجديد يقسمون بلدان العالم إلى أربعة أقسام، أولها: الدول المؤسسة للنظام، وثانيها: من تتوفر فيهم شروط الانضمام إلى ذلك النظام العالمى، وهم يقبلون الانضمام، وثالثها: من لا تتوفر فيهم الشروط ويريدون الانضمام، ورابعها: من لا تتوفر فيهم الشروط ويرفضون الدخول فيه.

وأكثر الشعوب العربية الإسلامية لا تندرج تحت أى من هذه النوعيات، فهم لا يعارضون وجود نظام دولى جديد أو التعامل معه، ولكن يقبلون بهذا بشروط وتعديلات شرعية معينة، بينما لا يقبل النظام الدولى بأى بديل.

لقد برهن العالم العربي على حسن النوايا بالانضمام الى معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية، والاختيار الاستراتيجي للسلام العادل والشامل مع إسرائيل، وبالإصلاحات الاقتصادية من أجل تحرير التجارة، وأيضا بدخول بعض الدول العربية في تجربة الديمقراطية، ورغم كل هذا فلا يوجد تجاوب أو اعتراف واضح بهذه المجهودات المبذولة من قبل الدول الغربية.

غـير أن علينا ـ في هذا المجـال ـ واجبـا أسـاسـيا ينبـغي أن نوليـه الاهتمـام الواجب، ألا وهو العـمل الإعـلامي والذي يأتي في مـقـدمتـه العـمل على تصحيح صورة الوطن العربى والإسلام التي شوهتها بعض الممارسات، وذلك من خلال النقد المستمر للذات والعمل المستمر على تجلية صورتنا وتحسينها.

إن استعـمـال العنف بكل أشكاله من طرف أفراد أو جماعات، قـد أعطى الفرصـة لأن تلطخ وتزيف صورة الشعوب العربيـة الإسلامية خاصة في عيون الغربيين، مع أن العالم العربي، هـو الأقرب تاريخيا وروحيا وجغرافيا الى الغـرب، فـضـلا عن الثـمن الكبـيـر الذي دفـعناه خـلال هذا القـرن من أجل استـقـلال بلدانا و من أجل أن نبـدأ صـفـحـة جـديدة ولكي نسـجل أنفـسنا في طريق الصداقة والتعاون مع مختلف الأمم والشعوب.

إن العنف الأعمى المدعوم بشكل كبير من الخارج والمنفذ بأيد من الداخل، قد أصبح ظاهرة عالمية.

والحداثة في صورة النظام الدولي الجديد تضعف العالم العربي عن طريق الوسـائل السـالفـة الذكـر ومنهـا ظاهـرة التطرف التي تعطي تـبـريرات لأعـداء الاسلام لمهاجمته والنيل منه، وهو بهذا يشغلنا عن مواجهة مشكلتنا الأساسية الأصليـة وهي كـيف نبني أمـة مـتـقـدمـة دون أن نضـيع هويتنا؟ والتي بإمكاننا التغلب عليها من خلال الفكر المستمر والعلم العميق والعمل الدؤوب.

ويتمثل الوجه الآخر الخطير للحداثة الغربية في عالم السوق.

فـفي مجـال النمـو والتطور نجـد أن العـالم العـربي غني بثـرواته الطبيـعيـة والبشرية، وموقعه الجغرافي بين الشرق والغرب والشمال والجنوب وقد جعله هذا مطمعـا للكثيـرين. وهناك اليوم من يفرض علينا بإلحاح تطبيق اقتصاد السوق بمفهوم الليبرالية الوحشية الذي أصبح يسيطر على العالم الآن.

واذا كانت البلدان العربية بطبيعة الحال منفتحة على انتاج كل ما يفيدها، وتطبيق القواعد التجارية التي تعطي دورا كبيرا للقطاع الخاص، فلا بد أولا،

وفي نفس الوقت، من تأسيس سوق عربية يمكن أن تحمي مصالحنا، وثانيا لابد من التحكم والحد من منطق السوق الذي يعيد النظر في أساسيات الحياة، بمعنى أنها تدمر أو على الأقل تهمش كل قيم الوجود التي لا تخضع للبيع والشراء.

وبالنسبة للمطلب الأول فالمشكل هو أننا لم نصل بعد للتكامل الحقيقي المنشود بين العرب كما أن أكثرنا لا يملك قاعدة صناعية ومصادر الإقتصاد مرتبطة بتصدير عندنا بعض المواد الأساسية التى لا تكاد تزيد على ثلاث.

أما الأمر الثاني فهو في نفس الخطورة، حيث يهرول الكثيرون الى تقليد الدول المتقدمة وبرامج صندوق النقد الدولي بدون التفكيرفي عواقب ذلك على هوية الشعب وسيادة البلد.

ولاشك أن الأمر في مجال اقتصاد السوق ليس سهلا كما قد يتصوره البعض، خاصة وأن شعوبنا تريد أن تؤسس ذلك على عدالة اجتماعية واضحة لا لبس فيها.

إن إنتاج الثروات هو هدف كل مشروع للتطور، وفي هذا الإطار يجب مراعاة معيارين أساسيين على الأقل وهما التوزيع العادل للثروات واحترام القيم الإنسانية والروحية. فالعدالة الاجتماعية والتضامن هما من القيم التقليدية الأساسية لدى شعوب العالم الاسلامي.

وبالنسبة للمحافظة على القطاعات الاستراتيجية لثروات الدول، فقد تم تضخيم التعارض بين القطاع الخاص والقطاع العام، في السنوات الأخيرة، حقيقة إن القطاع الخاص، وفي الكثير من الميادين هو المؤهل لخلق ثروات، غير أن الفعالية والخدمة العامة يمكن تحقيقهما أيضا، وفي الكثير من القطاعات العامة.

ولكي يحافظ العالم العربي الإسلامي على ذاتيته ينبغي عليه أن يرفض الليبرالية الوحشية التي تتناقض مع الكثير من القيم الاجتماعية، وقد وصف الاقتصادي «سمير أمين» «تاريخ الرأسمالية مقارنة مع الإسلام بأنهما شيئان منفصلان ليس ثمة علاقة مباشرة بينهما»، رغم أنه في الإسلام نجد أن الملكية الخاصة هي جانب أساسي مثلها مثل حرية التجارة، غير أن الربا، والاستغلال، ممنوعان.

والقطاع العام الحريص على المنفعة العامة للمجتمع هو أيضا أمر معروف منذ عهد الرسول ﷺ إلى الخلفاء الراشدين الأربعة إلى يومنا هذا.

إن التطور والتقدم اليوم قد سهلا إدارة الأعمال التجارية الى حد كبير. واقتصاد الوسط هو الذي يمكنه المحافظة على توازن المجتمع العربي وكذا التوازن بين القطاع الخاص والقطاع العام فكلاهما خاضع لإشراف الدولة التي تراقبه وتنظمه.

والتحول من هيمنة الدولة إلى هيمنة القطاع الخاص لا يعد حلا مطلقا بل إن القضية الحقيقية تتعلق بنظم التسيير والإدارة وأهداف السياسة الاقتصادية. ويتعلق الأمر بإعداد برامج اقتصادية تعطي الأولوية لمكافحة البطالة. إنها المسألة الأساسية التي سيسأل الحكام عنها أمام التاريخ، إن السوق يخلق ثروات لكنه يخلق في نفس الوقت بطالة كبيرة، ذلكم هو التناقض الذي يجب التحكم فيه.

وإذا كان العالم العربي غنيا بثرواته، فإنه يعاني من بعض النقائص فمثلا في نهاية القرن الحالي يقدر متوسط الدخل الوطني العام للفرد بـ ٢٠٠٠ دولار تقريبا ومتوسط عمره ٦٠ سنة، بينما دخل المواطن في الدول المتقدمة ٤٠٠ دولار ومتوسط عمره ٧٠ سنة، وجملة ما يصدره ويستورده العالم العربي يبلغ ١٥٠ مليار دولار سنويًا بينما حجم ما يتم بين الدول العربية لا يزيد على ٥٪ فقط من هذا المبلغ.

ويقـدرعـدد سكان العـالم العـربي في نهـاية هـذا القـرن بـ(٢٥٠ مليـونا) وسيبلغ سنة ٢٠٢٥ (٥٠٠ مليون) ومتوسط الأميين يقدر بخمسين في المائة من السكان.

وقد قدرت البطالة في العالم العربي: بنسبة ١٥٪ وستصل سنة ٢٠٢٥ إلى أكثر من ٣٠٪ إذا لم تبذل جهود لتحسين هذا الوضع.

إن البطالة المرتفعة والاقتصاد المتشابه ـ والذي يستورد أغلبية احتياجاته من المواد الغذائية ويصدر أقل من ٣٪ من المواد المصنعة والتي هي مرتبطة أساسا بأسعار المواد الأولية، أو كمية سقوط الأمطار بالنسبة للزراعة ـ تمثلان أيضًا مشكلتين كبيرتين تستلزمان إجراء إصلاحات عميقة في المستقبل، وقد بدأت هذه الإصلاحات بالفعل في بعض من بلداننا.

أما الإمكانات التي يملكها العالم العربي في مواجهة هذه التحديات فهي أن نسبة الشباب إلى إجمالي عدد السكان هي ٧٠٪ ـ وعمرهم أقل من ٣٠ سنة ـ كما أن ٣٠٪ من الاحتياطات العالمية في مجال الطاقة موجودة في الأرض العربية.

وتمثل طرق المواصلات الجوية والبحرية والنهرية أهمية قصوى في العالم العربي الذي يعد جسرا بين أوروبا وآسيا وافريقيا، وهي التي تمكن العالم العربي من أن يخرج من التخلف المادي إذا وسع قاعدته الصناعية القائمة ومواد التصدير على التحكم في التكنلوجيا.

والمشكل الأساسي الذي يجب أن يكون محط اهتمام الخبراء العرب هو مجال الري. إذ إن الشواهد تؤكد أن احتياطيات المياه بالنسبة للعالم العربي، حتى سنة ٢٠٢٥ ـ مقارنة بالاحتياجات ـ سوف تتقلص إلى النصف إذا لم تتخذ إجراءات علمية للتقليل من الاستهلاك المفرط للمياه، وكذا معالجة المياه وإدارتها.

وفيما يتصل بدور التربية والتعليم في مجال اقتصاد السوق، فإن الخطر يتمثل في تحويل المدرسة والجامعة إلى مؤسسة في خدمة رأس المال بحجة تحقيق معادلة التنشئة والعمل معا.

حقيقة إن التطورات العلمية والتقنية تستوجب وضع معايير جديدة في الاعتبار عند تربية النشأ، ولكن المدرسة والجامعة هما، أساسا مكان لتكوين المواطن من حيث ثقافة النقد والثقافة العلمية والمدنية وكذا التربية الدينية.

والفعالية في التربية والتعليم تعني ضرورة التفتح على احتياجات المجتمع والعالم الخارجي، ولكن المدرسة والجامعة، في الوقت ذاته، يجب أن تكونا مستقلتين لأنها تعدان مكان المعرفة والفن وحرية البحث مستقلة عن المنطق التجاري.

وهكذا نجد أن اقتصاد السوق يمكن أن يحقق ثروات، ولكنه أيضا يوجد حالة عدم توازن في العلاقات الاجتماعية، ويحاول توسيع هيمنته على كل شيء وهذا يشكل خطرا عندما يعمل بفكر منغلق يستهدف مصلحة ذاتية بحتة، كما يوجد مجالات جديدة للاحتكار.

إن العالم العربي أمامه مهمتان أساسيتان أولاهما الخروج من التخلف الاقتصادي وثانيتهما عدم التفريط في هويته لصالح مبدأ الربح من أجل الربح.

إن الخطر يمس شعوب العالم كله، وبخاصة العرب أولئك الذين يعلمون بأنهم أمة وسط.

ولكي نواجه الحداثة التي تقدم لنا في صورة النظام الدولي الجديد وعالم السوق يجب أن نعمل على تكوين مواطنين أحرار فخورين بهويتهم، وهذا يعني الديمقراطية والتربية والعلم والانضباط وحب الوطن.

ونتيجة للمشكلات الأساسية المطروحة من قبل الحداثة، أعني تهميش القيم الروحية، وضعف الممارسة الديمقراطية الحقيقية، وتدمير إمكانيات

الفكر الحقيقي، في إطار النظام الدولي الجديد وامتزاجه بالعولمة ـ فإن مشكلتين أخريين تطرحان على بساط البحث.

أولاهما تتعلق بالعلاقات الدولية، وهي مسألة سياسية، فالحداثة تستخدم لمحاولة فرض نظام جديد يعارض ويصعب، بشكل ماكر، وجود المجموعات الإقليمية، كالعالمين الإسلامي والعربي، بل إن هذا النظام الدولي الجديد يصنف دول العالم تصنيفا جديدا من حيث توفر شروط الانضمام إلى هذا النظام أو عدم توفرها.

وانتقادنا لهذا النظام لا ينبغي أن يكون عاما لأن من بلدان الغرب من هم أصدقاء للعرب والإسلام أو على الأقل للموضوعية والحق، وأنصار للتفتح والحوار، ولكن تجدر الإشارة إلى أن اقوال الغرب وأفعاله المتمثلة في سياسة الكيل بمكيالين والبحث عن «عدو جديد» وهو، عندهم، الإسلام، يقلق المسلمين ويصدمهم، أولئك الذين يعلم أكثرهم أنه لا يوجد بديل للتفتح على الغير والشراكة.

ومن جهة أخرى، فإن وضعية الاحتكار لميكانيزمات اتخاذ القرار في المؤسسات الدولية تبدو في نظر الأغلبية بأنها لم تعد تصلح لهذا الزمان وأنها غير عادلة، خاصة إن الممارسات، في هذا المجال، في الأعوام الأخيرة تبدو مكرسة لمبدأ الظلم الذي يجعل القانون في خدمة القوة.

وثانيتهما تتعلق بالجانب الاقتصادي، فالحداثة التي تعتمد على منطق السوق تعمق الفوارق بين البلدان الغنية والبلدان الفقيرة، حيث أصبح إفقار بلدان الجنوب أمرا فاضحا، بالرغم من وجود مناطق أو مستويات فقر لدى البلدان الغنية والعكس صحيح حيث توجد بعض المناطق الغنية في الجنوب، وكذلك فإن ديون بلدان العالم الثالث توقف التنمية، والشركات المتعددة الجنسيات ما ضية في استغلال الموارد الطبيعية لبلدان الجنوب.

إن فتح الحدود يتم التوسع فيه بشكل شبه كلي لصالح تجارة يهيمن عليها الشمال وبورصات تقرر أسعار المواد الأولية والتوجه الاقتصادي وحتى السياسي والثقافي.

إن توسع السوق وإعادة الترتيب للعلاقات بين المجتمعات والبشر، الذي ينشأ عنه، ينعكس بصفة سلبية على أغلبية بلدان الجنوب.

وهذه البلدان، من غير أن تكون شريكة للغرب في الممارسات والقيم تتعرض الى ما يسميه المفكرون والتكنوقراطيون «العقلانية الأداتية للتقدم» "Rationalite Instrumentale" أي التي توظف مختلف الوسائل والأدوات لخدمة السوق فحسب.

إن أحد العناصر الأساسية للتقدم يتعلق نظريا بترقية حالة الشعوب في غالبيتها العظمى وهذا يخلق بدوره مشكلا آخر يتعلق بمسألة العدالة في توزيع الثروات والحقوق المتعددة والواجبات الاجتماعية والاقتصادية، وتبقى ضرورة البحث عن نظام اقتصادي دولي جديد حلا لهذه المعضلة، أو على الأقل المراجعة لآليات القواعد الموجودة على مستوى المؤسسات المالية المتعددة الأطراف، وكذا إعادة بعث حوار حقيقي بين الشمال والجنوب، وجاك دريدا في «شبح ماركسي» "Spectre De Marx" يجدد الفكرة القائلة بأن المسائل المتعلقة بالعمل وانتقاد رأس المال تبقى مثارةانطلاقا من دروس الماركسية.

وليس وليد الصدفة أن تظهر ثقافة الإسلام كإحدى الثقافات القليلة التي تحاول مقاومة الانحرافات الأساسية الثلاث للحداثة وذلك من خلال محاولتها تكييف الفعل السياسي والثقافي والاقتصادي وضبطه، وإن كنا نلحظ أن هذه المقاومة والانشقاق ـ في مواجهتهما لأزمة الحداثة ـ تتحولان في الوقت الراهن ـ وعلى بعض المستويات ـ إلى أشكال سلبية (كالتطرف بكل أشكاله) تضر ما يعتقدان أنهما يدافعان عنه وتسيء إليه.

وبالرغم من تلك السلبيات فإن الشعوب العربية الإسلامية تطمح، وهذا حقها المشروع، إلى إيجاد بديل للحداثة الغربية وتسعى إلى تحقيق هذا، رغم كل الظروف والصعوبات.

ففي المجال الثقافي والأخلاقي نجد أن. الشعوب العربية التي تعرف جيدا ما تريده تبحث اليوم عن العناصر المشتركة للشعوب من أجل الوصول إلى التمييز وليس الخلط أو الفصل المفرط بين مختلف مجالات الحياة ـ دينية ودنيوية خاصة وعامة ـ في عالم ذى معنى ومغزى، وإن كان ذلك المسعى يمثل صعوبة، وهذا يعني أيضا ضرورة إعطاء أشكال مرنة للإرث الروحي والثقافي بما يتماشى مع العصر والعلاقات مع الغير، فهذه المراجع تتطلب تفتحا ويقظة واجتهاداً، وهنا تكمن الخصوصية، فالتمسك بالقواعد والمعالم والمعايير التي جاءت بها تعاليم القرآن الكريم المؤسسة لمغزى الحياة والأخلاق ـ أمر واجب وأساسى ولكن مع الحرص على التجديد والمرونة، أي السعي بصفة مستمرة لتحقيق التوازن بين القيم الدائمة الثابتة والمعطيات المتغيرة والجمع بين القيم الموحدة المشتركة والمتعددة.

وفي المجال السياسي فإن العرب يناضلون من أجل جعل الممارسات السياسية الداخلية والعلاقات الدولية ديمقراطية لكي يكونوا شعوبا حرة، ذات سيادة ومسؤولية، وهذه هي الصعوبة الكبرى. إن الشعوب العربية الإسلامية تسعى، مثل غيرها، في المجال السياسي، نحو إمكانية تحمل مسؤولياتها بكل حرية، أي ممارسة الديمقراطية للاضطلاع بالمواجهة المستمرة للأنظمة المتسلطة أو الرجعية، أما وجهة النظر القائلة بأن الديمقراطية خديعة وأن الشعب، من جهة أخرى، غير قادر على ممارستها، فإنها لا تغير معطيات المشكلة، إذ لا نستطيع تجنيد شعب وحثه على العمل والمحافظة على إنسانيته الحقة إلا إذا شعر بأنه مشارك في اختيار المسؤولين والبرامج والخطط، أي بأنه مسؤول عن مستقبله. إن مسألة الديمقراطية أساسية وهي تحدد كافة المسائل الأخرى.

وقد تعودنا على سماع البعض ينتقصون من قيمة مبدأ الديمقراطية واعتبارها شكلا من أشكال الفوضى، ويمدحون الأنظمة المتسلطة التي حققت

مستوى تنمية ونمو إقتصادي، مع أنه من الناحية العلمية لا يوجد ما يساند هذا الطرح، إنها آراء تعكس قصراً في النظر، إذ نجد، على المدى الطويل، أن الدمار الناشيء عن الاضطهاد والتسلط والقهر هو أشد ضررا من «مساوئ» الحريات، ولو أنه كما قال جان جاك روسو «إن الشعب لا يعرف دائما مصلحته»، فإنه من الأفضل إشراك المواطنين في قيادة مستقبلهم تحت أشكال مناسبة لكل زمان وثقافة، وذلك عن طريق وضع معالم وقواعد محددة لتوجيه الشعب وإرشاده وتعليمه وكثير من البيداغوجية، خاصة في المرحلة الانتقالية وبالنظر للصعوبات الموضوعية كالأمية، والفقر وخطر التدخلات والتأثيرات الأجنبية، فلا التراخي ولا التهاون في ممارسة السلطات، ولا الولاية على المواطنين واحتكار لحقوقهم، والطريق الوسط هو التفتح والاستماع إلى الشعب واليقظة والحزم تجاه الذين يبحثون عن استغلال شعار الديمقراطية والحريات طالما أنها تحقق مصالحهم ثم عدم الإعتراف بها لاحقا والتراجع عن القيم الأساسية للمجتمع بعد أن يدركوا أهدافهم.

وفي المجال الاقتصادى فإن الشعوب العربية الإسلامية تتطلع إلى التنمية التي تتضمن الشراكة مع الشمال، وهذا يستدعي أن تؤخذ بعين الاعتبار حقائق الجنوب، إن شعوب الإسلام تسعى نحو توفير مقتضيات الحياة الاقتصادية، على أساس التحكم في الحاجيات والعدالة الاجتماعية، وهو كذلك مطلب عالمي. إلا أن هناك فرقا جوهريا وخطيرا بين عالم الحداثة والإسلام، فالإسلام لا يقبل مجاراة عالم الحداثة إذ إنه إذا كان كل شيء بغير استثناء يمكن أن يباع ويشترى وفقا للحداثة، فإن للإنسانية ـ بعامة ـ وللإسلام ـ بخاصة ـ قيما ومبادئ وأصولا غير قابلة لأن تعرض في سوق البيع والشراء والمساومة.

إن الحداثة اليوم، تناقض قيم مجموعة من شعوب هذا العالم ومتطلباتها وهي تختلط حاليا مع مشروع العولمة والسوق، وهناك مستويان لمواجهة هذا المشكل، فعلى المستوى العاجل، هناك ضرورة فرض احترام الخصوصيات

الاقتصادية لكل بلد ومنطقة في إطار المفاوضات والمحادثات المتعددة الأطراف والثنائية وأن نأخذ في الاعتبار الجوانب الإنسانية والاجتماعية والحاجة للاستثمار في الجنوب، وتوسيع الاستيراد وليس فقط فتح الحدود والأسواق الوطنية للسلع الأجنبية، وهذا ما يجري الآن، الى حد ما، حسب ظروف كل بلد، وذلك أمر جد ضروري لمواجهة أخطر سلبيات السوق، وهو ظاهرة البطالة.

وعلى المستوى الأساسي ـ وهو المستوى المستمر للمواجهة ـ فإن المشكلات الجوهرية لآثار العولمة والسوق اليوم على الهوية، والقيم الخصوصية، وسيادة الشعب، تبقى مطروحة ومثارة.

إن التطلعات الثلاثة، الثقافية، والسياسية، والاقتصادية تمثل اليوم متطلبات الفكر والاجتهاد في الإسلام، إن الإنسان كل لا يتجزأ وهو يبحث عن إجابات كاملة بما يتماشى والعصر. وهذه ليست بالمهمة السهلة بل إنها أكثر تعقيدا وخطورة، اليوم، في ظل عالم الحداثة والسوق الذي يهمش كل ما لا يتماشى مع منطق التجارة والبيع والشراء.

إن ما يجري حاليا يتعلق من جهة بمستقبل العلاقة بين الشمال والجنوب، ومن جهة أخرى بالعلاقة بين الإسلام والديمقراطية والحداثة بل أنه يتعلق بمستقبل البشرية كلها، إن التصحيح النسبي لانحرافات العولمة يمر على المستوى السياسي عبر دمقراطية العلاقات الدولية وعودة قوة القانون، وعلى المستوى الأخلاقي والثقافي عبر حوار خصب بين الثقافات، وعلى المستوى التجاري عبر شراكة اقتصادية عادلة ومتوازنة. وبما أن العنصر السياس يعد أمرا أساسيا فينبغي التأكيد على أن الديمقراطية هي شرط التنمية، إن الإسلام يؤكد بأن «المدينة» السياسية هي محك اختبار الإنسان؛ إذ إن الهدف الذي تطمح إليه الشعوب ـ في النهاية ـ هو التمسك بالهوية ومبدأ التعددية والحوار في الاختلاف كأساس من أسس الحياة.

الإسلام والسياسة

إن عدم أخذ المسلمين بمنهج ديناميكي مستقبلي في حياتهم، يميز ويوازن بين القيم الدنيوية والأخروية، وبين الأصل والتطور وبين العام والخاص، يجعل مالديهم من أصول أكثر عرضة للتزييف من قبل حركة التاريخ وأيضا ممن يشوهها من أولئك الذين يحسبون أنهم يدافعون عن الإسلام.

ولقد كان رواد المسلمين، المحدثون منهم ـ مثل الأمير عبد القادر الجزائري (القرن ١٩) والأقدمون ـ مثل صحابة رسول الله ﷺ ـ على مستوى المسئولية، دوما، عندما يتعلق الأمر بالدفاع عن المجتمع الإسلامي ضد الأخطار والاضطهاد الداخلي والخارجي، وكانوا في عملهم مخلصين، لا يستغلون الدين لتحقيق أية أغراض سياسية.

وإذا كان البعض، من جهة أخرى، كابن عربي مثلا (القرن ١٣) قد صاغوا حياتهم صياغة روحية خالصة، ملهمين في ذلك بحساسية خاصة تجاه المطلق والذات العلية، فإن ذلك الاتجاه ليس له أية علاقة بالأصولية والسياسة، وإنما هو درجة عالية من درجات التصوف والروحانية، وهؤلاء هم الذين قال الله تعالى بشأنهم: ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ﴾ وإن المتصوفة، في إطار الطرق الدينية المختلفة، يمثلون الإسلام العميق الطيب المتسامح والوطني أيضا.

لقد شكلوا دائما شبكات فاعلة للتضامن لصالح الجماهير خاصة الريفية منها، شبكات تلقن المعارف الباطنية منها والعامة، شبكات للمقاومة حاضرة

دائما في مواجهة كل أشكال العدوان والاضطهاد. إن المتصوفين تقاة ومتواضعون، ومؤسسون لمدائن مشعة أو زوايا متواضعة وأماكن للذكر، تشكل إرثا ينبغي المحافظة عليه وإعادة بعثه. إنها رموز ومنابع وصورة لثقافة إسلامية تمتاز بالمحبة والتفتح بعيدة كل البعد عن الذين يتصارعون من أجل السلطة بطريقة غامضة ومبهمة وتجارية.

إن تطرف «الإسلام السياسي» ليست له علاقة بالإسلام بل، على العكس، وهو يشوه الإسلام الحقيقي، إنه أخطر انحراف يشهده العالم الإسلامي في نهاية هذا القرن.

والحداثة بتقسيماتها الجديدة تحتم على المسلم إعادة قراءة مصادره الأساسية ومداومة التأمل في كل من مدلول الوحي ومتطلبات الساعة، إذ إن مجرد الإيمان وحده غير كاف، خاصة في عصر يشهد تراجعا للقيم الروحية، إن الحداثة ليست مؤقتة بل أنها تخلف أوضاعا ثابتة، وما فيها من الانحرافات أمر يستوقف المؤمن ويتطلب منه جهدا واجتهادا. وليس المطلوب من المؤمن أن يقتصر جهده وسعيه على مجرد محاولة التكيف مع هذه الأوضاع والمقاييس الجديدة التي تأتي بها الحداثة، والتي تدمر كافة الثقافات الأخرى وتقضي عليها، بل المطلوب من المؤمن أن يفكر كمواطن حر من جهة وأن يحيا ككائن في كامل إنسانيته من جهة أخرى.

وفي هذا الإطار فإن الخلط بين الإسلام والسياسة وتوظيف الدين لأغراض سياسية يمثلان مشكلاً يزيد تحديات الساعة تعقيدا.

وينبغي أن تدرس هذه القضية، أعني العلاقة بين الإسلام والسياسة، بموضوعية تامة، لا بإلغاء هذه الإشكالية بدون أدلة أو براهين، ولا بالصمت، ولا باتخاذ موقف المتفرج، بل علينا أن نعي جيدا أنه في إطار أزمة الأيديولوجيات، وفشل بعض النماذج الغربية والشرقية، إلى جانب

المشكلات الاقتصادية والاجتماعية، وخطورة الفراغ الثقافي، برز الإسلام السياسي كظاهرة فرضت نفسها مؤقتا رغم أنها غريبة عن المجتمع العربي.

وهذا الإسلام السياسي الذي يستغله البعض، بخلط الأوراق وتعقيد المشكلات، يعطي الفرصة المواتية للأعداء للتآمر على العالم العربي الإسلامي الذي يواجه هذه الظاهرة الخطيرة خاصة منذ عام ألف وتسعمائة وتسعة وسبعين في شكلها الشمولي السلبي.

بل إن هناك أكثر من سبعين سنة من تاريخ وحياة حركة الإسلام السياسي المعاصر هذه والتي استغلت التناقضات العربية، وعدوانية الغرب، هذا بالإضافة إلى أن بعض الجهات والأطراف، ذات البنى الاجتماعية الجامدة، قد شجعت المتطرفين وأيدتهم.

وقد ازداد الوضع خطورة في نهاية الثمانينيات، أي مع نهاية الحرب الباردة وحرب أفغانستان، بالإضافة إلى أن البعض وهو يبحث عن عدو جديد، ومسرح للمعارك والحروب بشكلها الجديد قد سهل مسيرة العنف الأعمى.

إنه مهما كان تاريخ الشعوب الإسلامية، فإن شكل الإسلام السياسي وأسلوبه وممارساته أمر جديد علينا، ورغم طموحات بعض الطوائف والمجموعات في إطار الصراع من أجل الوصول إلى السلطة من عهد معاوية إلى اليوم، فإن الإسلام السياسي كما يقدم نفسه لنا في هذا القرن، هو أمر غريب تماما على مجتمعاتنا، بل إنه ارتكب أخطاء لم يعرفها التاريخ الإسلامي قط.

إن الإسلام السياسي مشكل لا يستطيع الاستمرار والبقاء، لأنه ضد مسيرة الزمن الذي يرفض أصحاب هذا النهج جملة وتفصيلا. كما أن استخدام العنف الأعمى يثير مشاعر الغضب لدى عامة الجماهير.

إن الشعوب العربية مرتبطة ومتمسكة بالإسلام بطريقة شرعية جد عميقة، ولكنها تكتشف اليوم الحقيقة المرة لهذا الاتجاه، ورغم هذا فإن قضية العلاقة

بين الإسلام والسياسة، بالمفهوم النبيل، تظل مطروحة كقضية تهم مشروع المجتمع والهوية .

إن العلاقة بين الدين والسياسة هى من تحديات الساعة بلا منازع، وعلينا أن نعرض لهذا الموضوع الحساس بيقظة وحذر بالغين إذ تدور حوله كثير من التفسيرات والاجتهادات المتناقضة .

إن أزمة الوجود والكينونة، ومسألة الحرية والمسؤولية ـ وهي مسائل ذات أهمية قصوى ـ تقع في لب القضية .

إن صورة الإسلام اليوم مشوهة ومزيفة، خاصة فيما يتصل بهذه القضايا، لقد صار الإسلام اليوم غير مفهوم كما ينبغى، داخليا وخارجيا، وهناك بعض العلماء ـ من ذوى النزاهة فى الغرب الواعين بهذه الإشكالية، وتجدر الإشارة هنا إلى ثلاثة من هؤلاء العلماء الغربيين: الأول، «جاك بيرك» الذى يقول بكل موضوعية: «لا قدرة للكثيرين من المثقفين الغربين على قبول وفهم أمر الإسلام الذى يحيرهم، إن الضعف الحقيقى للمستشرقين مرتبط بعدم وجود بحث حقيقى بدون التزام واحترام، احترام لمن؟ للقوم الذين ندرسهم؟» .

أما (وليفراد صاوت كانت) فيقول : « إن فهم ديانة ليست ديانتنا يتطلب منا مراجعة جادة لأكثر مفاهيمنا ومصطلحاتنا المتعلقة بهذه الديانة » .

أما الأستاذ (بارسي كامبت) فيقول : « لابد من إعادة نظر جذرية لكل ما نعرفه عن الإسلام من أجل أن نفهم الإسلام » .

إن المشاريع التي توظف الدين في الممارسة السياسية سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، بصفة عامة، قد عقدت الأمور، من جهة، كما أنها فشلت تماما من جهة أخرى .

وإن الفشل الدرامي والفظيع للنظم الشمولية، والتي تتخذ من الإسلام غطاء سياسيا، وأيضًا التصرفات السلبية غير الإنسانية للجماعات التي تنصب

نفسها ممثلة للإسلام السياسي، تعطي الفرصة للرأي العام العالمي، للمطالبة بالفصل بين الدين والدنيا كلية وليس فقط بين الإسلام والسياسة، وعلينا بطبيعة الحال أن نتجاوز هذا، فمن حقنا أن ننتقد الحداثة بنموذجها الغربي، ومن حقنا بخاصة أن نقر أن السياسة يجب أن نفهمها أولا بالنظرة الموضوعية وبالمفهوم النبيل، على أنها قضية العلاقة بين الناس في المجتمع من ناحية، وقواعد وأسس المسؤولية والحرية كمصير من ناحية أخرى، وعلى أنها مشروع مجتمع في خدمة المصلحة العليا.

إن البعض يحاول أن يفقدنا الأمل فيما يتعلق بالسياسة حيث يقدمونها لنا كبضاعة فاسدة، أو كقضية طموحات وأغراض شخصية، مثل الصراع على السلطة وغيرها، غير أن هناك طرحا آخر ومفهوما أنبل للسياسة، ونعني به تربية الإنسان، وتكوين الضمير والشخصية، وتحديد مسؤولية الفرد والمجتمع في الحياة.

وهناك غموض لدى بعض الناس، بخصوص قضية الإيمان والدين، إن الإيمان هو، بالفعل، قضية شخصية، تتصل بالقلب والحياة الخاصة وحرية الضمير، والغيب، والعلاقة مع الله سبحانه وتعالى، بدون وسيط، والدين في الإسلام يشمل هذا وأكثر، إنه قاعدة وأسلوب حياة كما سنوضح ذلك من خلال بيان علاقة الإنسان بذاته، وبالآخر، وبالعالم، ولهذا الأمر جانب ثقافي وسياسي بالمفهوم الإيجابي، فهل سنترك ونتخلى عن ضرورة التفكير في قضية المسؤولية ـ التي تمثل جوهر السياسة ـ في ضوء الإسلام؟ هل سنقلص ونقبل بتهميش قيم أساسية، لأن الحداثة أكثر قوة ولأنها تعرض نموذجا وحيدا للتقدم من جهة، وبسبب الكوارث التي أدت اليها أفكار وممارسات أصحاب الاسلام السياسي الضيق من جهة أخرى؟

إن كل الذين انتقدوا الإسلام السياسي، وقد رفضوا الخلط والغموض بين الإسلام والسياسة كما رفضوا توظيف الدين لأغراض سياسية وهم محقون

في ذلك، ولكن هذا ليس كافيا بل ليس مقنعا لجمهور المسلمين الذين يعلمون بفطرتهم الدينية أن الإسلام يشمل كافة جوانب الحياة .

إن السياسة بالمفهوم النبيل هي الحياة، ولا يمكن أن نقبل بفصل بالرسالة السماوية عن الحياة ، إن الإسلام دين ودنيا، ولكن المشكل هو أن المتطرفين من كل جهة يحاولون تعقيد هذه الإشكالية أكثر فأكثر.

فما هي، إذًا، أسباب التطرف ؟ ولماذا شهدنا، في هذا القرن تناميا للحركات الظلامية والمتطرفة التي تمارس العنف تحت غطاء الدين ؟

هناك بصورة أساسية ثلاثة أسباب خارجية وثلاثة أسباب داخلية لظهور الإسلام السياسي العنيف، وإن لم يكن ثمة شيء يمكن أن يبرر هذه الظاهرة الخطيرة المرفوضة شكلا وموضوعا.

فعلى الصعيد الخارجي، أولا نجد أن العدوان الاستعماري بشكليه القديم والحديث قد أثار التناقضات والعنف داخل المجتمعات الإسلامية .

كما أن الحرب السياسية والعسكرية والاقتصادية ، الواقعة أو المحتملة، ضد الإسلام والعالم الإسلامي ـ والتي تتسم بالمكر ـ تعطى حجة للمتطرفين .

ثانيا، تحديات عالم الحداثة تخلق ردود أفعال غير عقلانية لدى أنصار الجهل في مواجهة التقدم الذي يظهر وكأنه اعتداء خارجى، والذين يحاولون اللجوء إلى التطبيق الحرفى للعقائد:

ثالثا، دون المغالاة في الأخذ بمفهوم «المؤامرة الخارجية»، يمكن التأكيد بأن قوى سياسية أجنبية وخفية هي من وراء الحركات المتطرفة في البلدان العربية الإسلامية، خلال القرن الحالي، حيث تم دعم التطرف ـ بصورة مباشرة في الحرب الأفغانية من جهة وفي الشرق الأوسط من جهة أخرى ـ شكلا وتسليحا لتحقيق أهداف مختلفة، منها النضال ضد الاتحاد السوفيتى، وتشتيت قوات المقاومة الفلسطينية والبحث عن عدو جديد بعد سقوط جدار

برلين، ووضع عوائق لتطور الضفة الجنوبية للبحر الأبيض المتوسط وجهات أخرى، كل هذا من أجل الابقاء على مراقبة هذه القوى لمصادر الطاقة في المنطقة ، فضلا عن ضمان سيطرتها على هذه المنطقة الاستراتيجية في العالم وإضعاف العالم العربي الإسلامي والذي ينظر إليه على أنه مصدر قلق وإزعاج لطموح الشمولية، نحو التحكم الكامل والعام في شؤون العالم باسم العولمة والسوق .

أما على الصعيد الداخلي فالسبب الأول للانحرافات يرجع إلى الفراغ الثقافي أو ضعف القدرة على الإبداع، فالتطرف يستغل غياب أو محدودية الإبداع ، والجهل هو من مصادر الانحرافات، إذ منذ كارثة إغلاق باب الاجتهاد ورفض النظر الفلسفي، أصبح العالم العربي الإسلامي يعاني فراغا فكريا كبيرا، استغله المتطرفون، مع نهاية العهد العثماني، لطرح فكرة الإسلام السياسي.

ثانيا، ضعف الممارسة الديمقراطية وحرية التعبير، قد أدى إلى ردود أفعال عنيفة من قبل بعض أنصار الإسلام السياسي، رغم أنهم، بصفة عامة، ينظرون إلى الديمقراطية على أنها فعل الحادي مخالف .

علما بأن غياب الممارسة الديمقراطية يجعلهم يعملون في الخفاء مما يقوي من أمرهم، أما وجود دولة سيادة القانون وشرعية المؤسسات فيضعف شأنهم ويكشف أمرهم.

ثالثا، البؤس والفقر الاجتماعي يعد أحد الأسباب الأساسية لاستخدام الدين لأغراض سياسية وللانحرافات العنيفة .

الفقر، في إطار التفسخ والاختلاف والنزاع بين الطبقات، يستغله أنصار التطرف الذين يؤكدون دائما على فساد الأنظمة واستحواذ الأقلية على الثروات.

ومجمل القول أن الاعتداءات والمناورات الخارجية تحت مختلف الأشكال وأيضا التناقضات الداخلية هي التي أوجدت العنف الأعمى .

أما الشعوب العربية الإسلامية اليوم فقد أخذت دروسا من التاريخ المعاصر، فهي ترفض توظيف الدين لأغراض سياسية والتطرف واستخدام العنف الذي يتحدى العقل والإيمان، ولذا فالحركات المتطرفة محكوم عليه بالفشل.

ويرجع فشل فكرة الإسلام السياسي، قبل كل شيء، إلى تناقضها، أساسا، مع جوهر رسالة الإسلام ونصوصه وتاريخه، ونلخص أسباب هذا التناقض في النقاط التالية :

أولا، معلوم أن القرآن الكريم يركز على الرحمة والتسامح وأنه لا إكراه في الدين، ـ ولست عليهم بمسيطر ـ وهي قيم روحية توجه الإنسان من أجل أن يتحمل مسؤوليته بكل حرية.

ثانيا، لا يوجد غموض ولا تداخل بين القيم الروحية والدنيوية، وإنما هناك ربط بينهما من أجل تحقيق الانسجام. ﴿وَلَلآخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَىٰ﴾ والإسلام يدعو الفقهاء وأهل الحل والعقد إلى البعد عن الحكم والسلطان.

ثالثا، يركز الإسلام السياسي على مفهومي « الدولة الإسلامية » و«الشريعة» أما مصطلح (الدولة) فلم يرد في النص القرآني، وأما لفظة «الشريعة» فقد ذكرت مرة واحدة بمعنى طريق، إن القرآن يترك الأبواب مفتوحة لحرية ومسؤولية الإنسان، ولا يقدم أي نموذج محدد للنظام أو الإيديولوجيا أو السلطة ، باستثناء مفاهيم أولي الأمر والإجماع والشورى.

رابعا، معلوم أن الرسول ﷺ ، قد ترك للأمة مسؤولية تعيين مسؤوليها ، وذلك بإعطاء الثقة لعقل الناس وإرادتهم ، إنه لم يخلط أبدا بين أمور الحياة العادية وقضية العبادات.

خامسا، لم يطلق الرسول ﷺ وصحابته وتابعوه على أنفسهم لفظ «الفقهاء»، كما أن والفقهاء نادرا ما تقلدوا مناصب الحكم، في حين أن أصحاب الإسلام السياسي ينادون بأن يحكم الفقهاء الأمة.

سادسا، كانت الحروب والنزاعات السياسية بعد عهد الرسول ﷺ بغرض الوصول إلى السلطة، وهذا دليل على أنه لم تكن هناك قواعد أو نصوص محددة في هذا المجال.

سابعا، تكمن قوة الإسلام في أنه لا واسطة بين الله وعباده وكل مسلم راع، وكل راع مسؤول عن رعيته، «ولا تزر وازرة وزر أخرى».

ثامنا، معلوم أنه في تاريخ المجتمعات الاسلامية كانت مسألة ضرورة استناد الحكم إلى الشرعية مطروحة دائما كأمر طبيعي ومنطقي، ولا أحد يستطيع أن يحتكر، أو يسيطر عليها عنوة، بدون معارضة ومواجهة. وأكثر من هذا فإن استعمال العنف في إطار الممارسة السياسية للوصول أو البقاء في السلطة، هو ضد كل القيم القرآنية، وأيضًا، فإنه ليس من حق أحد أن يقتل الأبرياء مهما كانت الأسباب، إن ما نسميه اليوم بالديمقراطية ليس بالأمر الجديد على الإسلام، لأنه شكل حديث من مشاركة الناس من أجل حل مشاكلهم المشتركة، وتقرير المصير، وهو ما حاول المسلمون على امتداد تاريخهم ممارسته وتطبيقه بأشكال مختلفة، والأخذ بنهج الديمقراطية ييسر جعل السياسة فى خدمة الدين وليس العكس.

تاسعا، لقد أمكن للإسلام أن يصل إلى ما وصل اليه من اتساع في فترة جد قصيرة في حياة الشعوب، وإنما كان ذلك لأنه حرر الشعوب واحترم تعددية ثقافاتها.

عاشرا، إن نظم الحكم في البلدان الإسلامية، وعلى امتداد تاريخ الإسلام، تكاد تشمل كل أنماط الحكم وأشكاله، فليس ثمة نموذج إسلامي وحيد للحكم.

إلا أن كل ما ذكرناه عن ضرورة رفض الخلط بين الإسلام والسياسة والوقوع في الغموض بينهما وتوظيف الدين لأغراض سياسية، لا ينبغي أن يجعلنا نقبل بنقيض ذلك، وهو الفصل بين الدين والدنيا فالإسلام دين ودنيا، وهو دين الدولة، والإسلام دين ودنيا للاعتبارات التالية :

أولا، سبق أن قلنا إنه إذا كان الإيمان والقيم الروحية، تتعلق بالجانب الشخصي لدى الإنسان، فإننا لا نستطيع أن نفصله عن الحياة، إنه أمر ضروري أن نعيش وفقا لما يمليه الإيمان، لأننا لا يمكن أن نعيش حياة مزدوجة، إذ لا يمكن أن ندعي بأن في قلوبنا إيمانا، ثم نعيش حياة أخرى مخالفة له، إن القول بالتعارض بين القيم الروحية، والحياة الإنسانية والاجتماعية والسياسية بالمفهوم الإيجابي لا يتناسب مع الحقيقة القرآنية.

ثانيا، إن القضية الأساسية التي تشغل الإنسان بعامة هي قضية معنى الحياة والموت، ولذا فإنه أمر شرعي ومنطقي أن تتمسك الشعوب الإسلامية بقيمها الروحية ودورها الأساسي في حياة المجتمع.

ثالثا، إذا كان الايمان قضية فردية وخاصة، فالدين هو خير مكسب لفائدة الجميع والمصلحة العامة، ولذا فإن الإسلام يجب أن يكون محميا من جانب الدولة، بمعنى أن يكون الإسلام دين الدولة، لأن الدولة هي التي يجب أن تحميه، ولأنها تمثل الوعي بالتاريخ أمام قوة النسيان، ولا يمكن أن تكون دولة علمانية، بالمفهوم الغربي أي أنها لا تهتم بالدين كقضية ذات أهمية، وعلى النظام السياسي ألا يستخدم الدين لمصلحته الخاصة، لأن الدين يعنى كل الأمة الإسلامية. ان الإيمان والصدق وحرية الضمير وممارسة الحياة ملك الإنسان، وليس من حق أى أحد أن يتدخل في ذلك، كما أنّ على الدولة أن تضمن مكانة القيم الروحية في حياة المجتمع وتكوين الإنسان.

رابعا، لا هوية ولا شخصية ولا تقدم بدون أصول ومراجع وثوابت وأسس، وإلا فقد ضاعت الروح، إننا لا يجب أن نترك خللا بين الثوابت والمتحولات تحت أي دعوى أو غطاء.

خامسا، ينبغى ألا يكون هناك خلط بين الجرائم والتجاوزات والتطرف والجهل، من ناحية ونصوص القرآن الذي يتبرأ من كل ما يرتكب باسمه من ناحية أخرى، والبعض يقارنون بين ممارسات الشعوب الإسلامية ونظريات الشعوب الأخرى، ولكن لابد أن تكون المقارنة بين نظرية ونظرية وبين ممارسة وممارسة، والمهم أن نقيم وندرس لماذا تكون الممارسة في بعض الأحيان بعيدة عن النظرية، وكيف يمكن أن نقرب بين النظرية والتطبيق؟

سادسا، إن تكوين الأجيال يجب أن يقوم على التربية العلمية والدينية، مع التركيز على التسامح والتفتح، وحق الاختلاف بوصفه رحمة، وفي نفس الوقت ينبغي التأكيد على دور العقل، حتى نحافظ على المقدسات، والقيم الروحية بعيدا عن أي تزمت، ومن أجل إنسانية متوازنة ومسلحة أمام الغيب، والابتلاء والمحن، وفهم معنى وجودنا في العالم. ذلك أن الإسلام الحقيقي قادر على سد الطريق أمام محاولات تزييف الإسلام، إن الفصل التام بين الدنيوي والروحي هو أهون الشرين وأخف الضررين ولكنه ليس الحل، وتحقيق الانسجام بينهما هو رأس الحكمة.

سابعا، إن الفصل بين المؤسسات التي تمثل السلطة والحياة الفردية أمر طبيعي، واذا كانت للمسجد في الماضي مكانة وحضور متعدد الجوانب في حياة المجتمع: حيث كان مكانا للعبادة، ومدرسة ومقرا للحكومة، وبرلمانا، ومحكمة، فان التقدم المنطقي اليوم، وبدون تناقض مع القيم الإسلامية، يمنع الغموض والخلط، تجنبا لخطورة الانحراف، وعلى هذا فإن المسجد اليوم مكان للعبادة، ومكان للقاء بين الناس، وهو مكمل للمدرسة في مجال التربية الدينية والمدنية فقط.

إن الفصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة، هو الفصل بين مستويات الحياة وأنشطتها، وهو أمر طبيعي ومنطقي، ولكنه ليس فصلا بين القيم الروحية والحياة.

ثامنـا، تطرح الحداثة مشكل اختلاف الثقافات، ومكانة القيم الروحية في المجتمع، حيث تهمش دور هذه القيم أو تلغيها، ونحن ـ المسلمين ـ لا يمكننا أن نتخلى عن علاقة متوازنة بين قيمنا الروحية والدنيوية، فإن من يتنكر لأصوله يضيع في معترك الحياة.

تاسعا، الإسلام دين اعتدال ومن ثم فهو يرفض التطرف بمختلف أشكاله سواء المغالاة في الانغلاق والجمود ورفض التقدم، أو الانفصال التام عن الأصول والمراجع والثوابت.

عاشـرا، أمة الإسلام هي الأمة الوسط، فلا فصل تامًا بين مجالات الحياة الدنيوية والروحية، والعامة والخاصة، ولا خلط بينها كما سبق القول.

نحن أمة الوسط، فلا بديل ولا حل ـ خاصة في المجال السياسي والثقافي ـ ولا آفاق مستقبلية بدون الوسطية، التي تقوم على التوازن والتكامل والانسجام والموضوعية، ذلك أن الإسلام قائم على الاعتدال كمرجع أساسي للحياة، ولا مستقبل للعالم العربي إلا بالأخذ بهذا المنطق والنهج.

والصعوبة اليوم، خاصة في المجال السياسي هي كما قال ابن رشد: «أنه لا يمكن الوصول إلى موافقة بالاجماع في أي موضوع في أي زمان» وهذا يعني أن قضية التعايش والحكم ومشروع المجتمع تتطلب منا الحوار والمشاورة واحترام تعددية الرأي.

إن العيش في المجتمع يحتاج الى روح المسؤولية والتفتح والتسامح، فأن تتعلم كيف تعيش فى المجتمع معناه أن تتحمل مسؤولياتك السياسية، وذلك بأن تميز فى مختلف مجالات الحياة، بين الأولويات والأمور الثانوية، وبين الثوابت والمتحولات، وبين المجال الخاص والعام، وبين الخير والشر، وكل هذا يصعب إنجازه على المستوى الفردي، إنه أمر يحتاج إلى الحوار المستمر مع الغير، بل إنه لا يمكننا أن نمنع الغير من أن يعيش حياته كيفما يشاء ويريد، إن العيش معا، يفرض الأخذ بالحل الوسط بوصفه نموذجًا وخلاصة للوفاق.

وحتى نكون أمة تفرض طموح المشاركة في بناء التاريخ وكتابته، يجب ألا تكون السياسة عندنا هي الصراع من أجل الوصول إلى السلطة، بهذا المفهوم الضيق، ولكنها بالمفهوم النبيل، تهدف إلى تكوين مجتمع عربي إسلامي، يكون، بالفعل، خير أمة أخرجت للناس، إن مشاركة المواطن العربي في مسارات الحياة السياسية أمر جوهري ومنطقي يدعو إليه النص والعقل.

والقرآن هو المنذر ـ الإنذار الأخير والنهائي ـ وفي نفس الوقت هو نفسه حذر محتاط، فيما يتعلق بالمجال السياسي، حيث مجال الاختبار الحقيقي للإنسانية، إن القرآن يرفض الصدفة والعبث، كما أنه لا ينأى بالإنسان عن الواقع إلى ما هو غير عملي أو طبيعي، إن المطلوب منا هو استعمال العقل لكى نتوصل إلى إقامة مدينة جديدة، حديثة وأصيلة.

قــــراءة الــقـــرآن

إن ما يسعى إليه العرب اليوم مطلب شرعي وهو الجمع بين الوفاء لرسالتهم السماوية والتفتح على العصر الحديث. كما أن علينا ألا ننسى في كل الأحوال، أن القرآن الكريم تنزيل إلهي، وهو يتطلب منا الاجتهاد البناء، من أجل استخراج وتفجير المعاني الحقيقية للقرآن. كما أن العقل يلح على هذه القراءة الموضوعية بعيدا عن كل ذاتية أو عاطفة وهو ما أنجز المسلمون حينا وفشلوا فيه حينا آخر.

يرى المتخصصون أن هناك، بصفة عامة، ثلاث مراحل في تاريخ الشعوب العربية الإسلامية؛ مرحلة النشأة والانتشار في القرون الخمسة الأولى، ومرحلة الاستقرار والازدهار لخمسة قرون أخرى، مرحلة الانكماش لخمسة قرون تالية، رغم وجود بعض فترات الصحوة، وفي دراسته لتطور المجتمعات، كان ابن خلدون في القرن الرابع عشر الميلادي، يفرق بين هذه المراحل الثلاث.. والسؤال اليوم إلى أين نذهب غدا؟ أو على أي مرحلة نحن مقبلون؟

منذ تأسست المذاهب الفقهية الإسلامية الأربعة الكبرى، ومنذ «إغلاق باب الاجتهاد» والقطيعة قائمة بين الفلسفة وعلوم الدين، ومنذ وقوع هاتين الكارثتين أعني «الإغلاق» و «القطيعة» لم يتوقف المفكرون والمثقفون عن المطالبة بفتح أبواب الاجتهاد. ولقد كان الفكر العربي في مرحلة الازدهار يتميز بالاجتهاد والتفتح، فمن الكندي إلى الفارابي، ومن ابن سينا إلى ابن رشد، كان الطابع الغالب على الفكر العربي هو بذل جهود في مجال الحوار

بين علوم الدين والفلسفة ولم تكن أوروبا لتعرف أبدا الفكر العقلاني المنطقي والفلسفة لو لا ترجمة وتعليقات وتحليلات العرب للفكر الفلسفي اليوناني كما سبق القول، بالإضافة إلى إبداعاتهم تحت لواء الثقافة العربية، وهذا ما ساهم في بناء الحداثة.

إن الهدف اليوم هو أن نصل إلى تجديد الفكر والثقافة، ووسيلة ذلك هي استعادة المنهج العلمي، الذي يقوم على النقد البناء والموضوعي، مع الاستنارة بهدى الرسالة السماوية كطريق سليم للوصول إلى التقدم الصحيح.

كيف نفسر إذًا قيمنا وننظر إليها في ظروف أزمة العصر، وسيطرة العلمانية والمال والعلوم الدقيقة؟ لابد ـ لكي تقرأ أجيالنا تراثنا العربي الفكري قراءة صحيحة ـ من أن نجد الصيغة التي تساعد على فهم هذا الفكر، ذلك أن المشكل اليوم هو التباعد بين النظرية والتطبيق، لقد نجحت بعض الأجيال نوعا ما في تقليص هذه المسافة، وبقي علينا أن نعرف كيف ندرس النص الذي هو أساس ثقافتنا وتراثنا، وندرك كيف يعلمنا، وبحث إمكانية تطبيقه في حياتنا اليومية، خاصة وأن الحياة الإنسانية لم تزل تواجه محنا وصعوبات جمة، بل هي اليوم أكثر تعقيدا مما كانت.

ينبغي أن نفهم القرآن كما يتحدث هو أولا، ثم نستعين، بعد ذلك، بالتفاسير السابقة وأيضا بكل ما يتيحه لنا التقدم العلمي، إن الحاجة اليوم ماسة إلى فهم النص وتطبيقه بطرق معاصرة، كما يشير إلى ذلك القرآن نفسه في نصوصه وآياته الكريمة. إن كل جيل يحتاج إلى تفسير خاص تبعا لحاجاته الآنية. صحيح أن هناك ثوابت وقيما وقواعد وأسسا ثبتة، ولكن القرآن يدعونا إلى التبصر والتفكر، مع تطور الزمن في المجالات الأخرى، لقد ظهر في هذا القرن الذي نعيشه مسلمون متناقضون مع دينهم الذي يدعو إلى الاجتهاد والتسامح والتقدم، ومن جهة أخرى نجد أناسا يظنون أن التخلص من الجمود والتعصب يكون بإبعاد الدين عن الدولة والمجتمع.

وإذا كان الإسلام بريئا من توظيفه واستغلاله في قضية الوصول إلى السلطة أو البقاء فيها، وبعيدا أيضا كدين، عن الصراعات الأيديولوجية، فيجب أن نقرر أيضا أن الإسلام قاعدة حياة، ومن ثم فلا سبيل إلى إبعاد الدين عن المجتمع.

إن الإسلام دين ودنيا، ورؤية سياسية بالمفهوم الشريف النبيل للكلمة، بعيدا عن التصارع للوصول إلى الحكم والسلطة، لأن «الإسلام السياسي» - كما بينا قبل - قد شوه وزيف الفهم العميق لديننا الحنيف كقاعدة متينة في الحياة، فهل يمكن أن نستخرج من نصوص القرآن والسنة مشروع مجتمع من شأنه أن يواجه الحداثة الغربية ويتجاوز التحديات؟

إن مقاصد القرآن هي دائما حياة الإنسان في دنياه وأخراه. والهدف من قراءة القرآن والاجتهاد هو البحث عن المعنى، معنى العيش والحياة. القرآن نفسه يدعونا إلى قراءته والاستماع اليه وهو يقصد كل من يسمعه ويتلوه وكأنه موجه إليه بذاته، إن الحياة إنما تنمو بالتفاعل بين الإيمان والفكر، وفي مواجهة قضية الحداثة وأزمة البحث عن معنى الحياة فإن قراءة القرآن يمكن أن تساعدنا، إلى حد كبير، على مواجهة تحديات الساعة، وهذا إنما يكون باستخدام المنهج العقلي الموضوعي المستقل، لأن التقدم يفترض، بالتأكيد، استقلالية العقل، وممارسة حرية الفكر بعيدا عن الذاتية والعاطفة.

إن الأمر يتعلق اليوم بالحياة ذاتها، قبل قضية الإنتاج الاقتصادي والتطور المادي لأن أسس الحياة نفسها تتعرض اليوم لخطر كبير، فالسياسة والاقتصاد والثقافة، هذه الأساسيات الثلاث يجب أن نفكر فيها معا، وفي نفس الوقت يجب أن نقرر أن مسألة إدراك معنى الحياة هي منطلق وهدف كل هذا وغايته، وهذه مهمة المفكرين في المقام الأول.

إن المهندس، والفلاح، والفنان، كلّهم يشاركون في الحياة والفكر، ولكن مهمة المفكر، هي أن يعطي لهذا الإنتاج قاعدة وآفاقا، من أجل التحكم في تناقضات الحياة ومصاعبها، وهذا ما ينقصنا في العالم العربي.

إننا لا نستطيع أن نساير الحداثة مع التمسك، في نفس الوقت، بثقافتنا دون فكر جديد يقوم على الحوار بين العقل والإيمان، ويجب أن نعترف أن الفكر الإبداعي قد تأسس على المنطق، وهو اليوم غربي، إلا أن العالم اليوم يعيش أزمة إنسانية خطيرة، ومن ثم فهو بحاجة إلى بعض الجوانب الروحية التي تعطي للحياة معنى ولابد من غربلة حقيقية، للأفكار وحوار عميق مع فكر الغير.

واليوم وبحكم اللقاء المعقد والمتعارض بين الحداثة الغربية والإسلام، فإنه من الملح البحث في إمكانية قراءة القرآن الكريم قراءة جديدة، وذلك بالاستعانة بالمكتسبات المنهجية للفكر الإنساني.

إن الهدف هو الاقتراب من المدلول والمغزى الحقيقي لآيات القرآن دون المساس بالخصوصية الجليلة للكتاب الكريم، ورغم كل الصعوبات والعراقيل المتمثلة في الجمود الفكري لدى البعض الذين يرفضون أي تجديد وأيضا في القيود المفروضة على حرية الفكر وصعوبات الزمن الحاضر ـ رغم كل هذا فإني أحسب أن من الممكن إنجاز هذه المهمة وتحقيق هذا الهدف، أي قراءة القرآن قراءة أمينة تنسجم مع واقع العصر ومتطلباته.

والقرآن الكريم يحث على هذا بل يفرضه، إن الإسلام مؤسس على رسالة هي القرآن، وقدوة وهي الرسول ﷺ، هذه الرسالة والخطاب والقدوة موجهة إلى الإنسان ليتخذها مثلا ونبراسا يضيء حياته، ولكي يأخذ منها ما يعينه على مواجهة واقعه وظروف عصره.

فسلوك المسلم في كل عصر إنما هو محصلة فهمه لروح الدين والنصوص مع تفسير هذا بما يتفق مع ظروف زمنه الذي يعيشه، وهذا يفرض مسئولية على كل جيل، حيث ينبغي عليه أن يقرأ القرآن الكريم من جديد، وبخاصة حين تتعرض الشعوب لظروف وتهديدات خطيرة غير مسبوقة كما هو الحال اليوم.

والنهج الأسلم لقراءة، في نظرنا، هو أن ننظر إلى القرآن الكريم على أنه مرآة تعكس طبيعة العالم، وما وراءه، ومنطقه بكل جوانبها، ومنها التطور

والتغير المستمر، ولذا فإنه صالح للتطبيق لكل زمان ومكان، وهذا يبين ضرورة القراءة الجديدة للقرآن الكريم حتى يعود فهمنا له غضا جديدا وكأنه أنزل علينا اليوم.

لقد أثيرت مسألة «قراءة القرآن» أو تفسيره بعد ظهور المدارس الفقهية الأربعة وإغلاق باب الاجتهاد، وهي اليوم أكثر الحاحا في مواجهة تحديات الحداثة.

لقد نشأت العلوم الدينية على مدى حوالي ثلاثة قرون بعد عصر الخلفاء الراشدين ولم تتطور كثيرا بعد هذا، وإلى هذه الفترة يرجع كبار المفسرين وعلماء الفقه وهؤلاء مازالوا يمثلون الحجة والمصدر الأساسي للتفاسير وهذا حق رغم مرور أكثر من ألف عام على كتاباتهم، فلا يمكن بطبيعة الحال، ن نستغنى عن تفسير الطبري والزمخشري والرازي مثلاً، وهناك مفسرون آخرون معاصرون مهمون مثل محمد طاهر بن عاشور ومحمد القاسمى وكذا الشيخ متولي الشعراوي.

لقد كانت المرحلة الحاسمة للفكر الإسلامي هي الفترة من القرن الثامن إلى القرن الثاني عشر الميلادي (من الثاني إلى السادس الهجري) وهي الفترة التي شهدت ميلاد أكثر كبار العلماء والفلاسفة المسلمين الذين بذلوا جهودا كبيرة وتاريخية في مجال التفسير والتأويل. ولكن ما هو المطلوب من مفسري القرآن ومحلليه اليوم؟ إن المطلوب اليوم هو وتفسير جديد يضاف إلى ما سبق من تفسيرات ويتسق ومتطلبات العصر وأيضا يثير روح اليقظة والتساؤل والانتباه أمام متغيراته.

كيف نفهم القرآن اليوم في ظل ظروف صعبة ومتناقضة، في عصر سيطرة الإلحاد والعلمانية ومنطق السوق؟

إن نقطة البداية هي التوصل إلى مفتاح فهم القرآن الكريم، ثم النظر في إمكانية وكيفية تطبيقه ودوره في فهم متغيرات العالم والتحكم فيها، ومن

أخطر هذه المتغيرات، في عالم اليوم، كما أشرنا مرارا، تلك الحداثة التي تقضي، تدريجيا، على كل الثقافات.

ولكن قبل أن نشرع في قراءة القرآن وتفسيره ينبغي أن نتعرف على الصعوبات التي يمكن أن تواجهنا في فهم هذا النص العزيز. إن الذين يحاولون قراءة القرآن دون أن يعدوا أنفسهم إعدادا جيدا كافيا قد يشعرون بالاختلاف الظاهري في القرآن، بل يؤكد بعضهم صعوبة التعامل ومحاولة فهم مثل هذا النص الفريد، الذي يعرض لكافة نواحي الحياة الإنسانية من روحانية ودنيوية واجتماعية وغيرها.

وتتمثل الصعوبات الأساسية في القرآن الكريم أنه ينتقل من موضوع لآخر في نفس السورة ومن آية لأخرى، وذلك لحكمة ومنطق خاص ومراعاة لمقتضى الحال، والقرآن الكريم، أيضا، يحوي آيات محكمات وأخر متشابهات وهذه تتطلب مستوى فكريا معينا لفهمها، كذلك يتضمن القرآن الكريم الكثير من الألوان البلاغية كالحذف والتقديم والتأخير والالتفات والتمثيل مما قد يصعب فهمه على البعض.

وهدفنا من تفسير القرآن الكريم هو أن نتعلم كيف نطبق توجيهاته ومنهجه ونمارسها في حياتنا اليومية، وهذا لا يكون إلا بالربط بين الإيمان والعقل وبين النص القرآني والعالم، إن ضرورة الحوار بين الإيمان والعقل هي «المعنى» بكل قوته، والحياة هي تجربة هذا المعنى وممارسته في الواقع.

وأي محاولة لتفسير القرآن لاتعني استنفاد ما فيه من معان، ومن ثم فهي ليست احتكاراً للحقيقة، فالمعنى الذي يصل إليه المفسر ليس هو كل الحقيقة. ﴿قُل لَّوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾.

إن تفسير القرآن يتطلب منا أن نكون في حركة دائمة تبعا لحركة الحياة وأن نتحمل مسئوليتنا في هذا الصدد، إذ ليس ثمة ما يفرض علينا أن نقبل الأشياء كما هي دون اجتهاد وإعمال للفكر والعقل وهذا هو ما يدعونا إليه القرآن ذاته.

إن القرآن يوجه وييسر وينير ويهدي الحركة في سبيل تطوير الحياة ونموها، إن الحقيقة غائبة أكثر مما هي ظاهرة، والله، سبحانه، هو الغائب الحاضر الذي أرسل لنا الرسل بالرسالة والتنزيل لكي توجهنا في سعينا نحو فهم حقيقة الحياة وما بعد الحياة، وهذه الرسالات تخاطبنا، نحن البشر، على قدر عقولنا وبما يتفق وطبيعتنا وحياتنا في هذا العالم، وأيضا بلغتنا (العربية) وبلسان مبين، وهذا دليل على احترام الرسالات لتعددية الثقافات والحق في الاختلاف الذي تحاول الحداثة القضاء عليه.

لقد نزل القرآن الكريم لكي يوجهنا إلى النظر الصحيح في أمور الحياة والكون وهو يستنفر فينا روح المبادرة إلى التفكير والحركة والإبداع، ورسول الله ﷺ أكد هذا في كثير من أحاديثه الشريفة، ومن هذا أنه سأل أحد صحابته كيف تحكم في دين الله؟ فأجاب بكتاب الله، فقال له : فإن لم تجد. قال فبسنة رسول الله، قال فإن لم تجد قال : أجتهد برأيي. فأجازه ﷺ .

إن المسلمين اليوم، والمثقفين وأهل الرأي بخاصة، ينبغي ألا ييأسوا ويستسلموا في مواجهة محن الحياة وتحديات الساعة، فإن لديهم من القرآن منهلا عذبا ومعينا ثرًا يمتاحون منه ما يعينهم على مواجهة أمور حياتهم وما يتعرضون له من تهديدات جديدة في هذا الزمان إن القرآن الكريم نور، والله تعالى يهدي لنوره من يشاء.

ماذا يعني أن نكون مسلمين
في عصر الحداثة؟

الأنا و الغير والعالم

يتحدد مقدار نمونا وتخلفنا تبعا لفهم علاقتنا بذاتنا (الأنا) والغير والعالم، ذلك أن الحداثة الحقيقية إنما تتمثل في التحكم في هذه الأسس والهوية هى محصلة هذه العلامات جميعًا كما أن الهوية لا تستند، فى سعيها نحو التطور، إلى مصدر واحد.

لقد تساءل الإنسان، منذ بدء الزمان، عن ذاته، من يكون، ومن أين جاء، وإلى أين يمضي؟ فماذا يعني أن نكون مسلمين في عصر الحداثة الغربية المتناقضة؟ إن الإسلام يقترح جوابا لهذا السؤال المحير.

إذا كانت الحداثة تجعل من الإنسان مركزا للعالم، فإن النظرة القرآنية لهذا المخلوق تجعله في موضع وسط فهو كائن مفضل على بقية الكائنات ﴿ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾ وهو أيضا ـ من جهة أخرى ـ كائن ضعيف ﴿ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾، إن النسبية والإعتدال، هي سر الحكمة الإسلامية الحقيقية في مواجهة تحديات الحياة، فالمسلم يؤمن بالغيب، والغيب ليس معناه عدم المعنى، أو احتكار الحقيقة ومن ثم فلا بد من التفتح على العالم والثقافات الأخرى، والسعي إلى العلم والمعرفة وهذا جوهر الهوية العربية الإسلامية والقرآن الكريم.

إن العقلية العربية المتمسكة بالقيم الروحية توصل إلى السكينة والاطمئنان والتوازن، ولكن هذا لن يتحقق إلا بالجد والدأب، والسعي الحثيث من أجل

وسطية تسمح بمواجهة محن الحياة أمر لابد منه، فالإنسان العربي يدرك أن الحياة ليست عبثا، ولكنها تتطلب قمة الجد والحذر. وهي في نفس الوقت تنتهي إلى الفناء والزوال.

إن هذه المرجعيات والقيم تسهل مواجهة المحن، وتحقق السعادة دون تضييع للاعتدال، والإنسان العربي يعرف أن مسؤوليته ضخمة وأن كل مثقال ذرة من خير أو شر، هو مسؤول عنه، ككائن بشري حر يملك العقل والذكاء. كما أنه يعرف من جهة أخرى أنه سائر إلى فناء وأنه عبد ضعيف محدود العلم والمعرفة، الفرد العربي يعرف أن الله هو الغائب، وفي نفس الوقت هو الحاضر بل وأقرب اليه من حبل الوريد.

إن التوجيهات القرآنية تمنح الإنسان الهدوء وتهديه إلى الصراط المستقيم، الذي يكفل له تحقيق السعادة، والوصول إلى الموضوعية في تعامله مع الحياة، فلا هو منغمس في متع الدنيا، ولا يائس بسبب صعوبة الحياة، وقسوتها، إن الحداثة الحقيقية لا يمكن أن تكون معارضة لهذا بل على العكس، لأن العقل المعاصر يسعى إلى فهم العالم والتحكم فيه دون أن تتغلب عليه العاطفة والذاتية، فالحداثة تتحدث فقط عن الفرد والمواطنة، أما الاسلام، وإن كان يتحدث عن موضوع الأمة بشكل أساسي، فليس في ذلك أدنى إهمال لذاتية الإنسان وحقوقه، كما أن كل إنسان يتحمل مسؤوليته.

الحداثة كما نراها، وكما تمارس اليوم، توجد كائنات متشابهة في نفس القالب والإطار، والتوازن بين الفرد والأمة، بدون تناقض، هو جوهر نظرة الإسلام، وهذه العلاقة نفسها تطرح مشكلا لغير المسلمين في بعض الأحيان، أما بالنسبة للعالم العربي فالانسجام بين الفرد والأمة يسهل الوصول الى التقدم الإنساني، وإذا طغى أحدهما على الآخر فهذا، لامحالة، سيؤدي إلى اللاتوازن، إلا أنه يجب السعي والجد لتحقيق هذه الغاية، والممارسة هي التي تحقق الهدف. والعالم العربي يعيش اليوم تناقضات وصراعات بين الإرادة

الفردية والضغوط الجماعية وعلاج هذا إنما يكون بتحقيق التوازن بين الفرد والأمة بما يتفق مع ظروف هذا الزمان.

الإنسان المؤمن يعيش الحياة كلحظة من الخلود والزمان الممتد، ويحاول تطبيق الحديث النبوي الشريف الذي يقول «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا».

المؤمن، حذر، وفطن ويقظ يفهم معاني القرآن ويعيها وبذلك يصل إلى الموضوعية والتقدم والسعادة، باستعماله العقل، إن الإنسان من طبعه النسيان، ولكن لديه كل الإمكانيات التي تعينه على تفسير جانب ولو يسير من معنى الحياة والموت وآيات الغيب.

إن الحداثة التي نريدها لا تنفي ضرورة السعي نحو فهم معنى الحياة، والإشكالية هي مكانة القيم الروحية ودورها في الحياة وفي نفس الوقت كيفية تحقيق الانسجام بين الدور الأساسي للعقل، ورؤيته من ناحية، ومعنى الحياة في ضوء الإيمان من ناحية أخرى، إن الرسالة القرآنية تعطينا كل هذا الإمكانيات، وعلينا أن نتحمل هذه المسؤولية، ولا سبيل لتحقيق ذلك إلا بالالتزام بنصوص القرآن الكريم التي تحثنا دوما على ضرورة الاجتهاد والإبداع والنقد.

الإنسان العربي مطالب بأن يكون إنسانا كاملا ومثاله الرسول ﷺ. وهومسؤول فوق هذه الأرض، متوجه إلى الآخرة مع مراعاة متطلبات حياته في هذه الدنيا، إن غايتنا اليوم وغدا هي أن نتمسك بهذه المقاييس والمراجع والمفاهيم.

والعالم العربي لن يكون غدا إلا بتمثل حيوية هذه الأفكار، وذلك لن يكون إلا إذا فكرنا بعيدا عن الإيديولوجيات والديماغوجيات والمصالح الخاصة، وبالدفاع عن المصالح العليا بالوسائل العلمية، وفي إطار الحرية الفكرية. لقد تركنا منذ خمسة قرون تقريبا الفكر المتعمق والاجتهاد واحترام التعددية والاختلاف، وعلينا أن نربى اليوم إنسانا عقلانيا يعى هذا كله.

وكما يحدثنا القرآن الكريم، فإن الكائنات، كل منها يشهد بطريقته على علاقته بالوجود، أما الإنسان فهو في رتبة أعلى من ذلك، الإنسان، هذا المخلوق الغريب، هو خليفة الله في الأرض في كل أحواله سواء شعر بهذه المسئولية أم لم يشعر، عبر عن ذلك أم لم يعبر، هو مسؤول عن هذا كله وهو يتعلم كيف يعيش من خلال ممارسة هذه المسئولية وفي إطارها، ولكن هل نعرف أساسا كيف نتعلم أن نعيش؟ إن وسيلتنا في ذلك هي العقل الذي تكرر ذكره خمسة وأربعين مرة في القرآن الكريم، والإنسان العربي مدعو في الكتاب الكريم لأن يكون عقلانيا ما يقارب المائتي مرة.

إن مسألة المسئولية هذه تثير مباشرة التساؤل عن الحياة، والغيب، والإنسان المسلم هو الذي يؤمن بالغيب، فما هو المطلوب منا إزاء هذه الحياة؟ أوعلى أي نحو ينبغي أن تكون حياتنا، وكيف نفهم الحياة كاملة؟ إن محاولة توصيف الإنسان المسلم اليوم صعبة لما في ذلك من مخاطر لأن الإسلام يأخذ بعين الاعتبار أن من طبيعة الحياة التغير والتحول.

إن الهوية العربية الإسلامية ليست أمرا ميتافيزيقيا، الدين الإسلامي ليس فقط إيمانا يتصل بالحياة الخاصة للفرد، كما أنه ليس فقط الاهتمام بالآخرة. ولكنه العلاقة بين هذا وذاك، إنه الربط بين النظر والممارسة. ومن ثم فإن التنزيل لايقصد إنسانا ملائكيا. ولكن الإنسان الفاني لأن ذلك قدره.

إن القرآن الكريم يصور الإنسان كيانا رفيع النوعية، وهو الذي نفخ فيه الله من روحه وعلمه الأسماء كلها، ولكن الإنسان هو في نفس الوقت مخلوق من طين، ضعيف، ينسى ويسهو، إن القرآن يريدنا أن نسمعه، لكي نتعلم كيف نعيش، الإنسان كامل، ولكن شريطة أن يوائم بين مايقول وما يفعل، ومعلوم أن جوهر الإسلام يتلخص في خمسة أركان روحية تمثل أساس سلوك المسلم، وهي الشهادة، الصلاة، الصوم، الزكاة، الحج، بالإضافة إلى سبعة

قيم أساسية يمكن استخلاصها من خلال القرآن تتعلق بمواجهة الإنسان للحياة هي، الهدى، الشريعة و الوصية والسنة والحد والصبر والحكمة.

الشهـــادة

الحداثة هي البحث عن المعنى الموضوعي والمنطقي، بموضوعية والشهادة تقصد الله الواحد، والمسلم هو الذي يشهد أن كل شئ نسبي، إلا الله فهو المطلق، فالشهادة تفرق ما بين الإنسان والمطلق. وهي توقظ الانتباه كي نعرف أن الحياة فانية، بمعنى أنها تعد للموت واللقاء مع المطلق، والهدف هو أن يصح فهمك لحقائق الكون والحياة فلا تفاجئك مصائبها ومحنها. أفليست هذه هي الموضوعية؟ عندما نشهد، فإننا نعترف بالعلاقة بين الكائن المطلق والكائن النسبي، بين الحاضر والغائب والظاهر والباطن، وفي نفس الوقت نعترف بأن الحقيقة لا نهائية، أليست هذه هي الموضوعية؟ إن هذا هو الذي يقدم توازنا بين الإرادة الإلهية ومسؤولية الإنسان وبين حقوق الله وحقوق الإنسان، إن الشهادة تدعونا إلى عدم التفكير بشكل خاص ذاتي ولكن برغبة عالمية إنسانية.

هذا هو الجزء الأول للشهادة، أما الجزء الثاني، فيأخذنا إلى الاعتراف بالرسول ﷺ بوصفه النموذج البشري الكامل وهذا معناه أن الحياة الإنسانية هي في جوهر الرسالة والمشروع الإلهى لأن من خلالها تصل إلى الفلاح في الآخرة فالدنيا مزرعة الآخرة.

إن معنى الحياة، والبحث عن الفلاح، يسيران معا. إن الحياة تدفع الإنسان للبحث عن معنى الكون، وإذا كان الجزء الأول من الشهادة ينفى الألوهية عن كل ما عدا الله سبحانه، فذلك يفسر لنا أيضا بأنه الأول بلا بداية، والآخر بلا نهاية. هو الحق، هو المطلق، هو الله. والجزء الثاني يضعنا في مرتبة مشرفة، تعطي للمؤمن مشروع حياة على سنة رسول الله ﷺ.

والحياة هي أن تمارس هذه الحقيقة وتعايشها.

إن الشهادة تعني أن المطلق يقدر النسبي، وتدعونا ألا ننسى دائما هذا المعيار، وهذا المقياس، وهو معيار المعيار، ومقياس المقياس، إن الكل يفنى، ويبقى وجه الله، وإن عقلية المسلم تبدأ من هذه النقطة الجوهرية، وهي العلاقة بين المطلق والنسبي، أي بين الخالق والمخلوق، فلا شيء يشبه الله، ومن أجل أن يقترب الإنسان من المعنى والحقيقة المطلقة فنموذجه في ذلك الرسول ﷺ، لا تعددية في الأرباب ولا ادعاء لربوبية الإنسان.

إن الشهادة تفتح إمكانية التوازن والموضوعية، إن الإنسان يموت، إلا أن الحياة تستحق أن تعاش، بل وتعطيه إمكانية أن يكون إنسانا نبيلا. إن سنة الرسول ﷺ هي نموذج لكيفية تطبيق النص.

إن هدف الشهادة هو الاعتراف بالحقيقة، وفي نفس الوقت إنهاء وإلغاء كل ما يمكن أن يكون بين الحقيقة الإنسان، كما يفتح الآفاق لمواجهة محنة الحياة بموضوعية تامة.

الصـــلاة

إن الحداثة الأصيلة لا تقضي على العلاقة مع الغيب، والصلاة هي الذكر والذاكرة التي تربط العبد بربه، والقرآن يدعو المسلم عشرات المرات إلى الذكر، كما أننا نجد حوالي ثلاثمائة من المصطلحات والمفاهيم بهذا المعنى، والتي تتجه إلى مخاطبة أولى الألباب، والأمانة التي عرضت على السموات والأرض، فأبين أن يحملنها، تعني، فيما تعني، المسؤولية التي تجعل هذه العبادة خالصة لوجه الله.

الإيمان معناه أن تكون شاهدا على الحقيقة بالصلاة، التي هي عماد الدين حيث يصبح «الأكبر» أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد، إنها اللقاء الممكن بين المطلق والنسبي، وهى لحظة فاضلة في حياة الإنسان، كما أن الروح تعيش

بهذا الينبوع الداخلي. والصلاة لا تعني الهروب من العالم ولا رفض محنة الحياة، ولكنها العودة إلى الينبوع لمواجهة العالم.

الصيـــام

إن قانون الخلق هو الاعتدال. كما أن القرآن يدعو، وينصح بممارسة الحياة. والتحكم في الشهوات والعواطف، والتمسك بالوسطية بعيدا عن أي تطرف، أو مغالاة، فهل من حداثة أكثر عقلانية وأهم من هذه؟

ومن أهم السبل التي تزكى لدى الإنسان هذا التحكم والتعقل الصوم، كتجربة شخصية داخلية، والله هو وحده الذي يعرف مدى صدق الصائم، كما يعلمنا الصيام كيف نعيش بعضنا مع بعض، من أجل الوصول إلى التضامن والإحساس بالآخر.

إن شهر رمضان، هو وقفة في الزمن مرة كل سنة. من أجل التأمل وامتحان الضمير، والحداثة، التي تتسم بالعجلة والسرعة، بحاجة إلى هذا، إن الخطر على الإنسان هو ألا يتحكم في الزمن، والتمهل خمس مرات في اليوم للصلاة ومرة في السنة للصيام، تفرض وجود علاقة إنسانية مع الزمن.

الـــزكـــاة

الحداثة مبنية على العمل، فعلاقة الإنسان مع العمل تحدد مستقبله، ويتعلق الأمر هنا بثمار العمل وتوزيعها، فالزكاة تهدف إلى تلافي تراكم الثروة بدون استعمالها، وبدون تطهيرها، وهنا تبدو النظرية الماركسية أقرب الى هذا المفهوم من النظرية الليبرالية، فالإسلام يحمي الملكية الخاصة، مع المحافظة على الجماعة، إن العمل في كل وجوهه يحتل موقعا مهما وهو في مركز قدر الإنسان، كما أن الحداثة تنظيم وتقسيم للعمل، يترك كل الإمكانيات مفتوحة حتى يتمكن كل فرد من الارتقاء في السلم، وإن كانت قوة العمل، في الحداثة الغربية، تخضع، ككل شيء آخر، لمبدأ البيع والشراء.

الزكاة تذكر بمبدأ ضرورة إعادة توزيع الثروة، وضرورة العدالة الاجتماعية، وهذه حداثة عقلانية بعيدا عن سيطرة المال مثلما يحدث الآن في عالم السوق، أوسيطرة مبادئ الشيوعية التي تؤله المادة، فالزكاة، تقدم معنى التعايش لتقليل الفوارق بين البشر واحترام وتحسين العلاقة الإنسانية.

الحج

الحج هو العودة إلى الأصالة وإلى المنبع والفطرة، والحداثة الأصيلة هي أيضا البحث عن مرجع أساسي وخلاصة للقيم تسهل للإنسان أن يعرف ذاته، ويحقق حريته، والحج هو الفرصة التى يوجد فيها الانسجام بين النظري والتطبيقي، بين الحقيقة وهي من مجالات الغيب، والحياة والواقع، وهي من مجالات العلم، للتوافق بين ما يحبه الله وحرية الإنسان.

السفر إلى بيت الله، يقرب الإنسان من معنى الحياة، حيث الرجوع إلى الأمثل، وممارسة الذكر، والتذكر والاستغفار، الحج هو المكان الذي تصلي فيه مقابلا لأخيك المسلم. إنها لحظة إنسانية. والحداثة الأصيلة تبحث عن إنسانية عميقة عمق الإنسان، وهذا يتجاوز الزمن ويساعد على مواجهته.

إن هذه الأعمدة الخمسة، هي المراجع والمقاييس التي تساعدنا على تحقيق التوازن بين الثوابت والمتغيرات. بين القيم الروحية، وواجبات الحياة، كما تترك مجالات للحرية الفكرية والاجتهاد الدائم والمستمر، ويجب أن نتمسك بالأسس التي تمثل الإطار وننتبه إلى الإنذارات السماوية حيث تكون استجابتنا لها عقلانية، من أجل أن نحقق حداثة إنسانية.

إن هذه الأعمدة الخمسة تتكامل مع قيم أخرى، لتشكل العناصر الأساسية للهوية الإسلامية، وهي مرتبطة بالعلاقة مع الذات (الأنا)، ومع الغير ومع العالم، والتكيف مع مسيرة الزمن يتطلب منا فهم هذه العناصر فهما جيدا والسعي نحو تطبيقها تطبيقا أمينا.

وتتمثل هذه القيم الأساسية في الهدى والشريعة والنصيحة والحدود (الضوابط) والحكمة والصبر.

الهـــدى

الهدى هو، الاتجاه نحو الصواب والطريق المستقيم وهو أول مقياس رئيسى للكائن المسلم في مواجهة تحديات الحياة، المسلم يبحث عن الأساليب الحقيقية التي تهديه نحو هذا الطريق المستقيم.

يظهر ذلك جليا مع أول سورة (الفاتحة) التي تتجه إلى الله سبحانه بالدعاء، وهي تختصّ بمبادئ العبادة، ومعنى هذا التوجه هو أن الهدى الذي يسعى اليه المؤمن (المسلم) لا يكون بغير طريق العبادة والإيمان.

وطلب الهدى معناه: منطق التواضع، والاعتراف بصعوبة الحياة، وإرادة تعلمها، بحسب مشيئة الله (اهدنا الصراط المستقيم)، وهو الدعاء الأساسي والمحورى.

والسعادة تكون بإدراك الوسائل مع الوعى مما يسهل علينا الإبتعاد عن الطرق المغلقة، والإنسان في المنطق السماوى قادر بما أودعه الله في فطرته على أن يواجه محنة الحياة بدون مساعدة إضافية، كالرسالات السماوية، ولكن المحنة بغير هذه المساعدة السماوية ستكون أشد و أمر وأخطر، والحداثة ترغم الإنسان على أن يتحمل وحده المسؤولية دون عون من السماء، والقرآن يحترم هذا المبدأ، ولكن تدخل الإله (المطلق) في الزمان الإنساني (النسبى) لايقف ضد حرية الإنسان، إنه إنذار ونجدة، من أجل مواجهة الواقع المعقد، إنه من الحكمة أن تستمع الى هذا الصوت صوت القرآن، كي تواجه إشكاليات الحياة بوعي واقتدار وشفافية، والمهم أن تفهم هذا من أجل تقوية الحرية ودعمها، وليس تقويضها، والدليل على هذا أن أكثر توجيهات القرآن وأوامره، هي مرغبات وقليل منها ممنوعات.

الهدى، أن تقف في مواجهة العالم، ملتزما بالنهج القويم. والحداثة الأصيلة تدعو إلى المسؤولية الكاملة للإنسان، والإسلام يفعل نفس الشيء مع توجيه وهدى وتنوير من السماء.

الشريعة

إنها القيمة الثانية، والتي تعني الطريق، والالتزام والمنهج إن البحث عن الحق والصواب والجمال، يكون أقل خطرا حين تستلهم القانون السماوي، بعيدا عن استغلال كلمة الشريعة من بعض ذوي الأهداف البعيدة عن روح الشريعة، وإذا كانت الحداثة الحالية اليوم، تهمش القيم الروحية، فمن حقنا أن نرفض هذا بالنقد البناء والموضوعي، وليس بمجرد الرفض الذي يضر أكثر مما ينفع.

أن تحيا معناه أن تكون في حركة دائبة، وهدف الشريعة هو إضاءة الطريق، وممارسة الشريعة، هي ممارسة للاجتهاد من أجل أن تستمر مع الزمن بانسجام، والشريعة هي القرآن والسنة النبوية والمذاهب الدينية وآراء وأفكار العلم والمعرفة، واجتهاد كل مؤمن ومسلم مؤهل لهذا، والتفاضل بين المجتهدين أساسه التقوى والإحسان والمعرفة، وهذا على أية حال ـ موضوع آخر، علما بأن القرآن يشير دائما إلى الأولياء والصالحين الذين يعتبرون حرية الإنسان أمرا أساسيا. وقد نسينا، شيئا ما، هؤلاء الصالحين مع أنهم، مصابيح الأرض، لأن العالم في نظر القرآن مصباح يضيء، أما حين ننظر من حولنا، فإننا نجد أن العديدين ممن يتصدون للفتوى، ينظرون إلى الشريعة وكأنها شيء جامد ومغلق. لامكان فيه لحرية الإنسان ومسؤوليته واجتهاده.

إن الانسان بحاجة الى فرقان، ومما ييسر هذا أن تكون له مرجعيات ثابتة ومرنة، والشريعة تقوم بهذا الدور في مجال التمييز بين المعروف والمنكر.

وهذا معنى أن القرآن الكريم صالح لكل مكان وزمان شريطة أن تستعمل العقل لتحقيق التوازن بين المرجعيات الثابتة والمتحولة، ومعنى هذا أن يفهم كل جيل الشريعة ويطبقها بحسب زمانه ومكانه مع احترام الثوابت.

إن البعض يعتقدون أن التقدم يكون بإلغاء وإقصاء قيم الأصالة والتقاليد، والانسلاخ عن كل الضوابط والعيش بدونها، والإسلام يبحث عن التوازن بين الحقوق والواجبات، بين المسؤولية والحرية، وهذا أيضا هو معنى (أمة وسط)، وأما تحقيق هذا فمنوط بكل شخص، والمهم أن تعرف أن القرآن لا يدعو إلى هذا فقط، بل يجعله أمرا ضروريا.

النصيحة والدعــوة

وهي القيمة الثالثة، التي تحدد شخصية المسلم وتبينها، ومعناها أن يتواصل الناس فيما بينهم. وينصح بعضهم بعضا كما أنها تعني البحث عن الهدى الذي يوصل إلى الالتزام بالطريق والصراط، ذلك أن الدخول في الإسلام يعني التوجه الى القبلة المعينة بانتهاج طريق الله ولكى تكون هذه الطريق صراطا مستقيما، فلابد من مرجعيات وتنبيهات، وهذا هو مضمون الشريعة، والإنسان ليس وحده فى هذه الدنيا، وفي إطار الأمة الاسلامية تمارس النصيحة، بالابتعاد عن الفحشاء والمنكر، والأمر بالمعروف والخير بالاستعانة بتوجيهات القرآن وبمعطيات الخبرات والتجارب والثقافات.

إن الإنسانية الحقيقية ليست مجرد طبيعة، ولكنها إنسانية مثقفة تقوم على التبادل والتفتح والاستماع إلى الآخرين وحق الاختلاف.

والنصيحة تعني أن العلاقة مع الغير مهمة، فالهدى معناه أن الانسان مكلف وممتحن، وعليه أن يتوجه، ويواجه العالم والواقع، والشريعة تعني الحاجة إلى مرجعيات، لتحقيق التطور نحو الحقيقة والسعادة، والنصيحة هي أيضًا اللقاء مع الآخر المختلف، ومعنى هذا أن الغير (الآخر) لا يستغنى عنه،

لكشف الوجوه المتعددة للحقيقة. إن الإختلاف رحمة، وكل واحد منا مسؤول ولا تزر وازرة وزر آخرى.

إن الحداثة الغربية (الحالية) ترفض أن تتدخل الرسالة السماوية في تنظيم العلاقات بين البشر ولكننا، عربا ومسلمين، نعلم أن التوجيهات القرآنية تعطينا مراجع ومعايير وقواعد تسهل علينا الممارسة الإنسانية، مع تحملنا لمسؤولياتنا بعقلانية واحترام الغير.

ترى الحداثة أن الخلط بين مجال ممارسة الحرية الإنسانية والمشروع الإلهي يؤدي بنا إلى مخاطر الشمولية والسلبية، ومن جهة أخرى نرى أن المؤمنين يرون أن العقل والديمقراطية والتجارة بدون قيم روحية، يوصلنا إلى درجة اللاإنسانية، فكيف نمارس إذا الحرية الإنسانية، والعلاقة مع الغير بكل حرية واحترام، وبدون تناقض بين العام والخاص، بين الدنيوي والروحي، أو كيف نعيش الاختلاف ونحافظ على هويتنا؟

إن الهوية هي خلاصة علاقاتنا مع الغيب والغير والعالم إنها أشياء متحولة ومتغيرة دائما، ومفهوم النصيحة يساعدنا على أن ننظر إلى الاختلاف على أنه أمر طبيعي وهذا أمر يجب الإبقاء عليه.

الحـــدود

هى القيمة الرابعة التي يشير إليها القرآن في مشروع المنهج الذي اختاره الله للإنسان، أي أن نعيش عيشة صالحة دون أن نتجاوز الحدود الدينية وهي الأمانة في التطبيق والإخلاص فيه أعنى تطبيق التوجيهات الهادية، والشريعة بالمفهوم المتفتح، وأيضا ممارسة النصيحة لنعيش دائما حياة أفضل، ولكن مرونة المراجع تترك الطرق مفتوحة لحرية الإنسان دون إرغامه على طريق دون الآخر، وذلك بحسب النمو وحسب رغبة كل إنسان مؤمن وظروفه، ومن

أجل أن يعبر عن ذاته بموضوعية، عليه أن يبحث عن التوازن بين المراجع والزمان، والمكان اللذين يعيش فيهما.

إن المرجع الإنساني هو الرسول ﷺ، فهو الإنسان الكامل، الذي كان خلقه القرآن، إن المؤمن يستطيع، بل لابد وأن يتخذ موقفا مناسبا للظروف دون أن يتجاوز الحدود، لأن من يتجاوز الحدود فقد ظلم نفسه، والقرآن يعد الإنسان بطريقة تربوية وعلمية، فالقرآن هو الفرقان وهدفه هو أن يعين الإنسان ليجد الحل الوسط، بين المغالاة والتطرف في تقديس الأشياء من ناحية، وإبعاد المعنى الروحي العميق للحياة، من ناحية أخرى، ذلك أن الاختيار الأول يوجد غموضا وخلطا بين العام والخاص وبين الدنيوى والروحي، ويغلق على الإنسان في دائرة الشمولية، في حين أن الاختيار الثاني يوجد نوعا من الفوضى واللاإنسانية، وكلا الاختيارين تجاوز للحدود.

والحداثة تنظر إلى العالم بدون حدود، أو ضوابط ومحركها الأساسي هو السوق، ومطلبها الشمولية في اقتصاد السوق، أما الإسلام فيفتح آفاقا رحبة، ويقترح معايير وأسسا، ويضع حدودا وضوابط وهذه هي الحداثة الأصيلة المتعقلة، ولكن البلدان العربية لاتزال تتخبط بين هذه وتلك.

السنــة

إنها القيمة الخامسة التي تحدد المسلم وتعرفه، ومن معانيها : الطريق، والممارسة،

إن الحياة ليست سعادة مطلقة ولا ألما دائما، وهى تتطلب أن نعيشها، والحياة تمثل لحظة من الخلود، وسنة الرسول ﷺ تتلخص في قوله، اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدا واعمل لآخرتك كأنك تموت غدا، والحداثة الغربية تشبه من يختار العيش أبدا، البعض الآخر في العالم الثالث لا يتحرك ولا يعمل وكأنه يحيا منتظرا للموت، والسنة تعني أن تبذل جهدك من أجل أن

تصل إلى ما تريد، أو على الأقل تقرب المسافة بين ما هو نظري وما هو تطبيقي. . والتطبيق في الإسلام لا يتعارض، ولا يتناقض مع النظر. والممارسة التي نعنيها هنا، هي كل الممارسات، كيفما كانت، وأولها الاستماع والانتباه في محاولة فهم نصوص السنة والشريعة، لأن معنى النص يكون أحيانا مستغلقا، ويتطلب مجهود المستمع المنتبه حتى يظهر ويتضح.

إن القرآن يسهل الانتقال من المستوى النظري إلى مستوى الممارسة، والسنة تعنى تطبيق القرآن الكريم فى مختلف مجالات الحياة وظروفها في النزول، معنى ذلك أن الرسالة السماوية، لم تأت لتتناقض مع الحياة الإنسانية بل بالعكس جاءت لتأخذها بعين الإعتبار والحسبان.

الحكمـــة

الحكمة، هي خلاصة الهدى والشريعة والوصية والسنة، إن الحكمة تبين نوعية المسلم التمسك بمراجعه وأساليبه الأساسية، ونموذجه هو الرسول ﷺ.

ماهي الحكمة في نظر الاسلام؟ إن الانسان الحكيم هو الذي يتميز بثلاث خصال:

أولا، أنه كائن متدين، وهو ينظم حياته بحسب الرسالة السماوية، ﴿إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ أما من لا ينظم حياته بحسب الآخرة، فهذا بعيد عن الحكمة، الحداثة تهمل هذا، ولا تأخذه بعين الاعتبار بل تنحيه جانبا.

ثانيا، أنه طبيعي منسق، منسجم، مع الفطرة الأولى لأن آدم لم يطرد من الجنة، ولكنه أبعد عنها، دون أن يضيع فطرته، وعلينا أن نحافظ على طبيعتنا وفطرتنا الإنسانية، وحتى نحس دفء الفطرة الأولى، إن الاسلام يدعونا لأن

نكون طبيعيين في حياتنا، وسلوكنا، أما الحداثة، فهي تبعدنا عن هذا، وتغير من النظام الطبيعي للحياة.

ثالثا، الحكمة تتطلب منا أن نكون عقلانيين، فذكر العقل يرد أكثر من أربعين مرة في القرآن. والله تعالى يخاطب البشر بلفظه (يا أولي الألباب)، إن كل هذا يؤكد أن العقل محوري في حياتنا.

ممارسة المسؤولية تعني أيضا أننا أحرار بذواتنا، والحداثة تجعل العقل فوق كل شيء، وهذا ما يمكن أن يؤدي إلى انحرافات على المستوى النظري، إن الاسلام يريد عقلية عقلانية وحكيمة والعقل عين الحكمة، ويجب أن نفكر في محنة الحياة، كما يجب أن نعرف كيف ننظم التعايش الجماعي، إن تعددية المظاهر غير متناهية ولا متشابهة، وهذا يتطلب اجتهادا منطقيا وجهدا عقلانيا دائبا ومستمرا.

أن نكون متدينين، وطبيعيين، وعقلانيين، تلك هى الغاية، والمراجع والأساليب والقيم السالفة الذكر هي التي تحدد وتعرّف الإنسان المسلم، والحكمة هي خلاصة كل هذا مثلما هي خلاصة القيم وأسس القواعد الإسلامية ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾، إن الإيمان ضروري ولكن مجرد الإيمان لا يكفي، فالإسلام معناه أن تكون في نفس الوقت متدينا وطبيعيا وعقلانيا أى إنسانا حكيما.

الصبـــر

إن المرء قد يأخذ بهذه القيم السابقة كلها ويلتزم بها ومع هذا يجد صعوبة في إدراك السعادة التي هي هدفه ومبتغاه وهنا يكون الصبر عونا له على استكمال طريقه نحو السعادة.

فواجب المسلم في الحياة الصبر و أن يكون منتبها وحذرا ويقظا وجادا ومفكرا لأنه لم يخلق عبثا، فعليه مسؤولية وأمانة يجب أن يؤديها. واذا ابتلي بالمصائب والصعوبات في حياته، رغم تطبيقه وممارسة الشريعة والسنة النبوية، فعليه بالصبر ﴿ وَالْعَصْرِ، إِنَّ الإنسَانَ لَفِي خُسْرٍ، إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾.

فواجب المسلم أن يكون صابرا، والحداثة التي نلاحظها اليوم هي السرعة، والاضطراب والقلق الحاد، وإذا كان بعض المنتقدين للصبر يرونه أحيانا نوعا من السلبية والقدرية التي تحول صاحبها إلى شخص استسلامي وانهزامي، فهذه نظرة مسبقة وسطحية بعيدة عن روح الإسلام الحقيقي.

إن الضمير في الإسلام، هو اليقظة المستمرة في مواجهة التحديات والمحن والصعوبات، والمطلوب أن يظل المرء فطنا متمسكا بالصواب، مهما كانت الظروف. إن عدم الصبر يوصل إلى مرحلة الجنون، والعصر الراهن يطرح الكثير من المشكلات أمام الناس الذين يعيشون بدون مراجع أو أصول، وبدون توازن بين الدين والطبيعة والعقل.

إن الحياة الحديثة بدون صبر هى جد صعبة وخطيرة خاصة في التعامل مع الغير والعالم وقت المحنة.

العلاقة مع الغير والعالم

إن العلاقة مع الآخر (المختلف) هي في صميم لغز الحياة، وفي مركز قضية المجتمع، هكذا يعتبر الإسلام هذه العلاقة، فإن القرآن الكريم لا يتجاهلها، والإسلام لا يلغي مسألة الاختلاف، بل يقدم هذه الإشكالية بدون أفكار مسبقة، والنظرة الإسلامية متفتحة على الآخر إلى حد كبير، ومع هذا فالعديد من المسلمين اليوم يناقضون هذا المبدأ، ويقدمون صورة مشوهة لديننا الحنيف.

إن الإسلام يرى بصفة أساسية أن الاختلاف رحمة، وذلك كقاعدة للخلق، كما أن الرسالة السماوية تركز على وحدة البشر والشعوب وتساويهم كما تقدم، في نفس الوقت، فكرة التعددية كوسيلة للوصول إلى المعرفة والحقيقة ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾، كما أن القرآن يذكر أن الديانات السماوية الأخرى، هي من مشاريع الإله سبحانه.

إن الأمة الإسلامية مجتمع خاص، وكيان ديني وثقافي وحضاري، يتكون من : بشر متعددي الطباع، تجمعهم نفس القاعدة السماوية والمراجع والقيم المشتركة.

إن الاسلام يعتبر أن هوية المسلم ترتكز على الأركان الخمسة الأساسية، والقيم التي مر ذكرها، كما تتميز بنهجها في التعامل مع الغير، وسنرى أيضا فيما يأتي أن العلاقة مع العالم والطبيعة هي الوجه الآخر لهذه الهوية.

أما في مجال العلاقات مع الغير فنلاحظ أنه منذ خمسة قرون، بدأ العالم الإسلامي يتقلص وينكمش تدريجيا، كما أصابه التجمد والتأخر كعالم، والأسباب كثيرة ومتعددة، خارجية وداخلية.

خارجية وتتمثل في الغزو الاستعماري في الماضي، والنظام الدولي الجديد اليوم، والذي يريد أن يذيب الهوية العربية، ويستغل غنى وثراء هذه المنطقة، وهذا من الأسباب السلبية المؤثرة على مشاكلنا. إن إشكالية الحداثة كما قدمناها، سواء أردنا ذلك أم لم نرد، تؤثر علينا سلبا وإيجابا.

أما الأسباب الداخلية، فلها ثلاثة مستويات، ففي المجال الفكري والثقافي والعلمي، أهمل العقل، والنقد البنّاء والاجتهاد الدائم، وفي المجال السياسي نجد أن مشاركة المواطن في تحديد المصير كانت مكبلة أو غائبة، وفي المجال الاقتصادي نجد مفهوما وممارسة غير عقلانية، وغير متوازنة.

إن المسلمين اليوم في حالة تقهقر، وهم يعانون من حالة الغربة وكأن دينهم هو دين الأقلية حتى مع كثرة معتنقيه في العالم اليوم، وامتلاء المساجد بأتباعه، إننا يجب أن نوجد ثانية الرباط الحقيقي بين الدين والحياة حتى ندفع عن الإسلام حالة الغربة هذه والإحساس بإحساس الاقليات رغم الكثرة العددية الظاهرة، إن العلاقة السليمة مع الغير هي من السبل والشروط الأساسية لتحقيق هذه المعادلة والربط.

إن حياة الغير شيء مقدس، واحترام هذا من أولى الأولويات في الإسلام، ﴿مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِي الأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾.

وفي منطق الإسلام ليس من الضروري أن يكون بين الناس نسب حتى يكونوا أهلا متحابين، ومنطق القرآن هو أن يبين لنا الواقع بكل دقة والواقع أن الغير، قبل كل شيء، هو كائن مثلي، وروحه مقدسة مصونة، ومن جهة أخرى فإن وجود هذا «الغير» أمر ضروري لحياتي، إنه مرآتي التي أستطيع بها اكتشاف الحقيقة، إن العلاقة مع الغير هي مصدر السعادة، وهي أيضا المحنة، والحياة وصعوبتها تتمثل في «الغير».

إن الإنسان يستطيع ان يكون ثعلبا بالنسبة للإنسان الآخر، يكيد له ويسعى إلى استغلاله، والسيطرة عليه، وتذويبه، والإسلام ينبه إلى هذا، إن الانسان، أو الغير، هو في نفس الوقت أخ لك خاصة إذا كان من أتباع نفس الدين، ويمكن أن يكون عدوا إذا لم يحترم قواعد نظام الحياة، والفطنة ضرورية ومطلوبة لتمييز الأخ من العدو.

أن يعيش الناس معا فذلك من طباع الإنسانية التي تقوم على هذا التعايش، إن موضوعية القرآن لا تدعونا لأن نظن أن الآخر هو دائما (الأخ) في طريق الحياة، لأن ضغوط الحياة وتناقضات المصالح وتعددية الرأي والاختلافات تدعونا كلها لأن نتحكم في طبيعة علاقاتنا مع الغيرونضبطها، من أجل ألا يصبح الغير عدوا.

إن الحداثة، تجعل الناس متشابهين، نمطيين، ويبدو أنها ستنتهي تدريجيا إلى إيجاد نموذج بشري واحد، وهناك من يقاوم هذا بشكل أعمى، وبغير أمل، وهناك من يذوب فيها بالتقليد، أما الإسلام فيطلب منا أن نسعى إلى التقدم بصفة مستمرة مع التمسك بمقاييسنا ومراجعنا.

والإسلام هو دين السلامة، وهو يهدف إلى إبعاد ضغوط العنف والمغالاة والتطرف عن المجتمع بل إن الرسالة القرآنية تركز على الرحمة المتمثلة في تكرار ألفاظ، الرحمن الرحيم، السلام، في مختلف السور القرآنية الكريمة.

إن الغيـر ليس فـقط جـديرا بالاحـترام، ولكـن وجـوده شـرط ضـروري لاستمرار الحياة.

إن الوحدة الإنسانية والتعددية الثقافية، والعلاقة مع الغير تظهر لنا أننا كلنا بشر، وهذا هو عامل الوحدة، أما الاختلاف فهو أمر طبيعي في الكائنات، وهذا هو منطق التعددية في الحياة، والوحدة أهم من الاختلاف، وفي نفس الوقت هي المحنة والابتلاء، كما أن الاختلاف بوصفه رحمة هو جانب أساسي من فلسفة القرآن الكريم، والمسلم الحقيقي يجب أن يكون قابلا للاختلاف، وهذا هو التسامح الذي يضمن الانسجام والسلامة بعيدا عن العنف، أما الجهل فهو مصدر كل عنف.

إن الكائن البشري معرض للابتلاء والامتحان، مع نفسه، ومع الآخر، ومع العالم وجها لوجه.

والسلامة تكون في سلامة هذه الجوانب الثلاثة وكلما توفرت السلامة، تقلصت المسافة بين النظرية والتطبيق، فما هو أفضل أسلوب نختاره اليوم كعرب للتعامل مع الآخر والغير؟

إن العلاقة مع الغير أو الأجانب، هي التي تحدد السبيل نحو تحقيق وإنجاز ما هو مطلوب من الإنسان (الواجب)، ولأجل هذا نقول إننا لا يمكن ان نعيش بدونهم، وعلى العرب اليوم أن يتوقفوا عن الشكوى من الغزو الأجنبي والغربي، ذلك أن العولمة تمثل خطرا على جميع الشعوب، حتى مع إدراكنا لخطورة التدخلات والمؤامرات ضد هويتنا، ويجب أن نفهم جيدا مرجعياتنا في إطار تطور الزمن، وأن نعمل على أن نخلق ونبدع ثقافة جديدة، تسهل وتسمح لنا بالتأقلم والتفتح على الآخرين.

إن رد الفعل بعنف الخطاب أو بما هو أكثر كعنف الفعل يضر بما نريد الدفاع عنه، بل ويشوه صورة العرب، ويسرع بنا نحو الهوة، كما أنه لا يمكن الإجابة

عن الأسئلة المتعلقة بمن نكون وإلى أين نذهب في زمن صعب ومعقد، دون أن نتفتح، ونتحاور مع الثقافات الأخرى.

يحكي الطبري أن رجلا سأل الرسول ﷺ : من هو أفضل المسلمن؟ فأجاب الرسول ﷺ، بما معناه، : يكفى الناس شره، كما أن حديث الرسول صلى الله عليه وسلم عن المفلس في هذا المعنى معروف وواضح.

والقرآن الكريم يخبرنا، أن الصبر والعفو والرحمة أفضل وأقرب للتقوى : ويلح على أننا إذا استطعنا تجاوز اختبار محنة العلاقة مع الآخر والتحكم فيها فذلك هو مفتاح السعادة.

والمسيحيون واليهود هم أهل الكتاب، وأغلب القصص القرآنية تدور حول أحوال أهل الكتاب، والأنبياء الرسل، إن القرآن هو تذكرة، وتاريخ للفلاح والصلاح، وإبراهيم وابنه إسماعيل يمثلان، بهجرتهما، مرحلة جديدة في تاريخ الرسالات السماوية، والمسلم ينظر في تاريخ الأمم السابقة، من آدم إلى إبراهيم، وإن بعد العهد بهم وذلك لكي يتعلم ويأخذ منه وجه العبرة.

إننا اليوم غرباء في التاريخ وفي العالم، وفي النظام العالمي، ولكننا لسنا مضيعين، لقد بدأ التاريخ الإسلامي بالهجرة كضرورة أمام المحنة والمعارضة والخصوم.

إن أهل الكتاب الذين يريدون السيطرة على العالم اليوم بنظام اقتصاد السوق ووسائل الاتصال الجديدة، والسلاح النووي، هؤلاء يدعونا كتابنا الكريم إلى أن نتحدث معهم بيقظة وأن نجادلهم بالتي هي أحسن، ولأهل الكتاب مكان وحقوق في المجتمع الإسلامي إلى جانب المسلمين، إن أساس التفضيل بين البشر، هو التقوى، سواء أكانوا من الأمة الإسلامية أم من غيرها من الأمم.

إن القرآن يقررأننا خير أمة أخرجت للناس، ولكن بشرط أساسي، وهو أن ننفذ ونطبق ونعمل، نحن خير أمة، شرط أن نقوم بالخير ونتواصى بالصبر.

وإذا كانت هناك آيات تدعونا الى الحيطة، وألا تكون علاقات حميمة إلا بيننا ـ نحن المسلمين ـ وتحوي نقدا وتصحيحا لغير المسلمين، فذلك لكي نكون على وعي تام بأن الحياة صراع لابد من تجاوزه بدون تضييع لقيمنا الأصلية.

واذا كانت المبادئ والقواعد والمقاييس على المستوى النظري، واضحة جلية، فان التطبيق، كما يدل عليه تاريخ الشعوب الإسلامية، وخاصة اليوم، لم يكن وفيا دائما للنصوص، ومع هذا فإذا ما قارنا بين المجتمع الإسلامي والمجتمعات الأخرى، فإننا نجد أن مسألة احترام الغير وحماية الأجنبي، والتفتح على الاختلاف هى أفضل حالاً في العالم الاسلامي.

وعلى امتداد التاريخ الإسلامي، ومع هجرة الرسول ﷺ وصحابته، طرحت مشكلات كثيرة، منها، الاندماج في المدينة المنورة، ومنذ البداية بث الرسول ﷺ روح الترحيب وحسن الاستقبال كقيمة عربية أصيلة، ودعا لأن تستقبل كل عائلة من الأنصار عائلة من المهاجرين، بما في ذلك المسيحيين واليهود، لقد كانت هذه أول مؤسسة موحدة ومتعددة في تاريخ الإسلام، وقد سنت قانونا لتنظيم هذا الأمر، وهو أول دستور يتضمن اثنتين وخمسين مادة، يضمن لكل أسرة حريتها واستقلاليتها، وحتى في المجال الاقتصادي كان هذا الدستور يحمي المساكين والفقراء، حيث وضع أسس التضامن الاجتماعي، وقد كان جوهر أكبر سورة نزلت في المدينة، ـ وهي سورة البقرة ـ توضيح ألا إكراه في الدين، ومعنى ذلك أنه ليس ضروريا أن تكون مسلما لكي تعيش في مجتمع إسلامي، ما دام حق التعايش وحسن الجوار مضمونا.

أما أهل الذمة، فقد كان ينظر إليهم على أنهم أناس محميون، شاركوا في حياة المجتمعات في كل مستوى، حتى ولو كانت هناك مشكلات ومظالم

تحدث بين الفترة والأخرى، بحسب طبيعة النظم السياسية، والمهم أن القرآن بريء من التجاوزات، والأخطاء البشرية، وهذا باعتراف المستشرقين كبرنارلويس (اليهودي الإنجليزي)، والذي تميز دائما بنقده للإسلام، يقول في كتابه (اليهود في أرض الإسلام) ص ٧١ و ٣٢ «هناك صورتان تلخصان دائما ما كتبنا عن الإسلام، الأولى، تمثل فارسا يحمل سيفا بيده، وبالأخرى كتاب القرآن، وهو يخير ضحاياه بين اختيار السيف أو الكتاب، أما الصورة الثانية فهي التي تقدم الحياة في المجتمع الإسلامي كعالم مثالي، حيث تتعايش فيه كل الأعراق والجنسيات والديانات في انسجام تام، والحقيقة أن الاسلام لا هذا ولا ذاك».

ويضيف برنارلويس: «صحيح أن الاسلام في بدايته قد سوى بين الناس، لأنه دين العدالة، وإذا نحن قارنا العالم الإسلامي هذا بالعصر الأوربي الوسيط، في أوربا أو الهند أو الصين، نجده دين العدالة والتفتح والتسامح، حتى ولو كانت الطبيعة البشرية قد مارست العنصرية وعدم التسامح، ولكن هذا ليس من مسؤولية الإسلام».

أما الأستاذ جاك بيرك، وهو أكبر مستشرق عني بدراسة المجتمع العربي الإسلامي بموضوعية، فكان دائما يكرر: إن الاسلام قدم أجمل حضارة في التاريخ، ويعني بذلك الأندلس، التي ينبغي أن نوجدها ثانية مع الظروف الجديدة.

إن الحل في مستقبل الثقافات يكون بالحوار، لأننا اليوم نعيش واقعا معقدا، وعالمية شاملة، ذلك أنه لا توجد اليوم دار للحرب ودار للسلام، والمسلمون والأجانب، في كل مكان، يعيشون معا، صحيح أن هناك مشكل الأقليات، خاصة الأقليات الإسلامية في الغرب، إلا أن هذا يقابله، في نفس الوقت، الشمولية والعالمية، ووسائل الاتصال الجديدة التي تلغي الحدود،

ويجب أن نبقى على النموذج الإنساني الإسلامي، ونموذجنا هو الرسول ﷺ للإنسان الكامل.

وإذا كانت الحداثة الأصيلة، بالمفهوم الديكارتي السلمي، تتمثل في التسامح واحترام الاختلاف في الأفكار في إطار التعددية على أساس العقل، فلا تناقض في الإسلام مع هذا، ولكن لا بد من توفر مرجعيات روحية تسهل للعقل التوازن والانسجام مع القلب والروح، صحيح أنه «أنا أفكر فأنا موجود»، ولكن صحيح أيضاً أنه «أنا أومن فأنا موجود».

إن حضور العقل ضروري، ولكنه وحده غير كاف، والإيمان ضروري ولكنه كذلك غير كاف، والانسجام مع الطبيعة ضروري، ولكنه بدوره لا يكفي. والحداثة في رأي الاسلام هي هذه المقاييس الثلاثة معا، والموضوعية تدعونا لأن نعترف بأن القرآن الكريم يطلب منا أن نقبل الآخر، القريب والبعيد في حياتنا، بالرحمة والتسامح، على أن نبقى فطنين ومنتبهين. إن الآخر ليس ملاكا ولاعدوا، بل هو كائن بشري بضعفه وقوته، ولن يكون للعالم العربي كيان غدا ما لم نحقق هذا التوازن، لأن البعض يعاني من عقدة الغرب، ويتخذونه كنموذج، ويهمشون دور القيم الروحية والثقافية الخاصة، المقاييس الطبيعية، والبعض الآخر يفزع أمام التقدم، ويعطي للعقل ظهره، ويلجأ الى التطبيق السطحي للشريعة بل تكون ردود أفعالهم أحياناً بالعنف، إنهم كمن يخربون بيوتهم بأيديهم! وقد فشل هؤلاء على امتداد بلدان العالم الإسلامى واتجاههم الآن فى حال تراجع وتقهقر.

أما عن علاقاته مع العالم، فهو المجال الثاني من العلاقات الذي تريد الحداثة أن تغير من أسسه، فكيف يرى القرآن علاقة الإنسان مع العالم والطبيعة في عصر الحداثة؟ يحوي القرآن الكريم من الآيات ما يصور الطبيعة والأرض التي يعيش عليها الإنسان، مع أن هدفه الأساسي هو عرض قصة الإنسان وتاريخه، وذلك لكي يستخلص الإنسان من هذا التاريخ وجه العبرة

ومن ثم يتحمل مسئولياته تجاه الكون والطبيعة التي سخرها له الله والتي هو، أي الإنسان، جزء منها.

إن أصل الانسان الطبيعي واضح ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم﴾، أما فيما يتعلق بالأرض والطبيعة، فإن القرآن وتوجيهاته للإنسان فيما يتصل بالطبيعة وما يحيط به بعامة تحكم عقلية المسلم، ونظرته لها، ويتلخص موقف الإسلام من الطبيعة في نقطتين أولاهما : احترامها التام ثم عدم عبادة شئ منها، كما أن القرآن يدعو الإنسان لأن يكون طبيعيا، وأغلب الأوامر والوصايا والتوجيهات القرآنية، هي رخص وتسهيلات تتفق مع الطبيعة، أما الممنوع فهو الاستثناء، فالإسلام دين الفطرة وهو يدعو أتباعه أن يكونوا متسقين مع الفطرة والطبيعة.

كما أن العلاقة مع الطبيعة هي مصدر للحياة، والطبيعة في الوقت نفسه، تحوي من الآيات البينة ما يقربنا من الحقيقة، والطبيعة نفسها مسخرة لخدمة الإنسان، ولكنها ليست نعيما كلهِا، وليست هي الجنة، وهذه هي الموضوعية، والطبيعة أيضا ليست النار، وإنما هي مكان للعيش، يجب أن يحترم، ويستخدم، ويستغل لصالح الإنسان، وإذا كان الفيلسوف «ديكارت» ومن تبعه من فلاسفة الحداثة يقررون: «ان الانسان المعاصر هو السيد ومالك العالم» فليست هذه نظرة الاسلام، حتى وإن كان الانسان هو خليفة الله في الأرض حسب التعبير القرآني.

وإذا كان العلم الحديث، وإبداع التقنية قد قلبا كل المقاييس، وفرضا سيطرة العلوم الدقيقة، وسهلا التقدم في مجالات متعددة من التكنولوجيات إلى العلوم الطبية، فإنهما قد أوجدا أيضا أزمة مزدوجة في مستوى الطبيعة والبيئة والتلوث، وانقراض الثروات الطبيعية، وهو ما يمثل خطرا على مستقبل الإنسان على هذه الأرض.

ان التقنية جديرة بكل عناية، ذلك أنها أتاحت ما لا يمكن اغفاله أو إهماله في إطار التقدم المادي، ولكنها في نفس الوقت ليست بريئة أو محايدة، إنها تغير في المجتمعات أسلوب الحياة، وهذا ما ينبغي أن نتنبه إليه ولكن ما هي الطبيعة بالتحديد أو ما هو العالم الطبيعي؟ إنه زمان ومكان، وما هي وجهة نظرنا بخصوص هذين الأمرين ما هي رؤيتنا للزمن والمكان؟ إن النظرة للزمان والمكان في مفهوم الحداثة الغربية تختلف تماما مع النظرة القرآنية.

فالحداثة الغربية تقوم أساسا على السرعة، والإسلام ليس محبذا السرعة ولا التوقف وإنما هو وسط بين الأمرين، فالزمن يمضى، والإنسان الحكيم يدرك أن ما مضى لايعود، وهذا مهم وطبيعي، ولكن الإنسان المعاصر في عجلة من أمره على الدوام، وهو يتوجه دائما نحو الغد فقط، أما المسلم فإنه يتذكر الماضي بما فيه من أصالة، ويتمسك به ويحاول دوما تكييفه ليكون عونا له على مواجهة المستقبل، إن العلاقة بين الثقافة والطبيعة أمر أساسي في الاسلام، حيث نجد أن إيقاع الحياة اليومية مثلا مرتبط بالشمس والقمر، وأوقات الصلاة والعمل والراحة والنوم، مرتبطة بحركة الكواكب.

وتنظيم المكان الذي يعيش فيه الإنسان (كالبيت والمدينة) واستغلاله، في الثقافة الاسلامية، يختلف أيضا عن الثقافات الأخرى، فالتعمير، في الإسلام، يراعي اعتبارات أساسية هي تسهيل العلاقة والاتصال بين الناس، إذ السعادة تتحقق عندما يلتقي الناس، ويتحدثون، ويتعلمون بعضهم من بعض، والاعتبار الآخر، هو توفير الجو السلمي الآمن، والدفاع عن الأشخاص والمجتمع وحماية الكرامة والحرمات.

والاعتبار الثالث، أن دار المسلم يراعى فيها احترام الاختلاف والتعددية بين طبقات المجتمع، فهي تستر الفقراء والأغنياء جميعا، وتحفظ خصوصية الأسر والعائلات، وتسهل التجمع والحياة المشتركة داخل البيت أو المدينة، أما اليوم فإن غلبة الجانب الوظيفي والتجاري، والنمو الديمغرافي والميل نحو

التسهيل، قد خلخل هذه المقاييس، كما أننا نلاحظ تأثير السوق في هذا المجال، حيث الذوق الفاسد، وغياب الجانب الجمالي.

واذا كانت هناك جوانب موضوعية إيجابية وجيدة في التكنولوجيات الجديدة، والتقدم العلمي، فليس ثمة مجهودات كبيرة للتوفيق بين هذه التكنولوجيات والتقدم من ناحية والأساليب الإسلامية، وقيمنا الفكرية الأصيلة من ناحية أخرى.

إن العالم العربي في الغد، قادر على إيجاد حداثة متوازنة، شريطة أن يفكر من أجل أن يكون له مكان وزمان متفقان مع قيمه ونهجه، دون التناقض مع منطق الطبيعة، إن طبيعة الانسان وفطرته هي المقياس الذي يحقق التوازن بعيدا عن أي تطرف، فيجب مثلا ألا ننبهر بمتع الدنيا وخيراتها، ونرخي العنان لشهواتنا بدون قيد أو حد، وينبغي ألا تعمينا الحياة حتى الغفلة والغرق فيها، كما يجب ألا نستسلم وألا نفقد الأمل أمام صعوبة، فالحياة ليست لهواً، ولا هي مأساة، وإنما هي محنة وابتلاء، والسعادة فيها ممكنة، ولكنها تتطلب جهداً لإدراكها، إن التوجهات القرآنية في مجملها تتفق مع منطق الطبيعة وما يسمح به ضمير الإنسان وطبيعته، والرسول ﷺ يقول لنا مثلا: ما معناه استفت قلبك وإن أفتوك وأفتوك، أي أن المسموح به هو ما يسمح به ضميرك.

وهدف القرآن هو أن يوقظ الوعي لدى الإنسان حتى يكون طبيعيا ويعود إلى فطرته السليمة، ويجدد شباب الحياة،

والقرآن يدعونا لأن نحيي من جديد فطرة الإنسان حتى يكون إنسانا كاملا أو قريبا من الكمال

أما الزمن فهو الموضوع الأساسي لإشكالية العالم العربي غدا، أمام الحداثة، وأفكار القرآن تهتم بالثوابت من جهة، والمتحولات من جهة أخرى، وهذه

إشارة واضحة إلى قضية الزمن فالدائم، مع المؤقت، والثابت مع المتحول، وهذا هو التوازن المطلوب منا، وهي أصعب قضية ولكنها الأقرب الى الطبيعة، إن الحقيقة الجامدة ليست من الإسلام في شيء، والحياة بالتعبير القرآني هي لحظة، هي حين في إطار الزمن الممتد، والمصير إلى الله، وكلمة المصير تتكرر ثمانية وعشرين مرة في القرآن، وهذا معناه أن الحركة الدائمة للحياة، يجب على المرء أن يجسدها وأن يمارسها، بحيث تتجه دوما إلى ذلك المصير.

إن الزمن في الإسلام ليس خطا مستقيما يتألف من ماض، وحاضر، ومستقبل، وإنما الزمن هو حركة دائبة في اتجاه المصير، هو الآتي عبر دينامكية تأخذنا إليها، ونقصدها، إن تقسيم الزمن بهذا الشكل الثلاثي ماض وحاضر ومستقبل ليس له معنى. وانما هناك تداخل ديناميكي بينها في الحركة الدائبة نحو ذلك المستقبل.

وفي حياة المجتمع العربي الإسلامي، هناك زمن الرسول ﷺ، وهو زمن البشير والنذير والداعي، وذلك يمثل تدخل المطلق المتمثل في تعاليم الرسالة السماوية في زمن الإنسان وحياته، وهناك زمن التطبيق والممارسة، وتنفيذ الرسالة بالعقل، وبالتي هي أحسن.

إن غاية المسلم في حياته أن يظل ملتزما بالنموذج الكامل للحياة الذي مثله زمن الرسول ﷺ دون أن يغفل متطلبات حياته الفعلية المعاصرة، فهو دائما مطالب بأن يكيف ذلك النموذج الأمثل مع واقعه ومتغيرات الحياة.

والمسلم يتجاذبه أزمان ثلاثه هى الزمن المرجعي، والزمن المعيش، والزمن المستقبلي، والسؤال: هو كيف نحقق التوازن والشفافية والمواءمة بين هذه المستويات الثلاثة للزمن؟ إذ إن تحقيق ذلك التوازن هو أساس سعادة الكائن، فالزمن المعيش، يجب ألا ينسينا الزمن المرجعي والزمن المصيري، والعكس أيضا.

وقد أشرنا قبل إلى أن غاية القرآن هي الحياة، وهو يعلمنا الحياة، ويسهل لنا الربط والانسجام بين المرجعيات والمقاييس والممارسة من ناحية والواقع المعيش من ناحية أخرى.

وعندما لا نعرف كيف نواجه تحديات الزمن في كل وجوهه، عندئذ تنشأ الأزمة، وعندما نعطى ظهورنا للزمن فإنه الموت، وعندما نخلق تناقضات وتعارضا بين الزمن الأصلي والمعيش والمصيري، يمكن أن تحدث قطيعة مع الحياة حتى الجنون والسعادة هي الانسجام والتوازن والشفافية مع كل جوانب الزمن والحياة، إن عالم اليوم يفتقر إلى هذا الربط والتوفيق بين الجوانب الأساسية للحياة العقلية والدينية من ناحية والطبيعة من ناحية أخرى.

وعلى هذا الأساس فإن الإمكانات التي يمتلكها العالم العربي الإسلامي هي خصوصياته الثقافية، فالأمر يتعلق بنوعية الكائن، وأسلوب عيشه، وعلاقاته الأساسية بسر الحياة وبمغزى العالم، والعلاقة مع الغير، وإذا كانت توجيهات القرآن الكريم منفذة بالاجتهاد والعقل لكل الأفراد والأجيال والشعوب في مجتمع يحترم حقوق الناس في تقرير مستقبلهم، مهما كانت محن الحياة، والاعتداءات الخارجية والمشاكل الداخلية بمختلف أنواعها فإنه لا يمكن تدمير هذه الأمة ذات الهوية الحية، فقوة الأمة غير مرتبطة لا بزعيم أو فئة أو حساب بنكي، أو أي وسيلة مادية أخرى مهما كان نفعها وأهميتها، إن قوة العالم العربي تكمن في نوعية المواطنين المؤمنين، الواعين كل الوعي بأن تحقيق الانسجام بين قيم الأصالة والتقدم هو المنهج الصحيح، ولذا، يجب وضع حدود واضحة بين ما هو دنيوى وما هو أخروى، فليس كل شيء في الحياة قابلا للبيع والشراء.

الخاتمـــة

إذا لم يكن باستطاعتنا اليوم إيقاف سيطرة التقنية والسرعة، فإنه من الممكن الوصول تدريجيا إلى حداثة عقلانية، واقتصاد سوق متوازن، ونظام دولي جديد يحترم كرامة الإنسان العربي وحقوقه.

وهذا ممكن بالطبع، إذا ما تمسكنا بقيمنا ومرجعياتنا ومعاييرنا على امتداد الزمان في إطار العمل العربي المشترك.

إن الهوية هي القوة الكبرى، والسلام الكبير، والدرع الواقي، شريطة أن نفهم هويتنا ونعيشها كما ينبغي، إذ نستطيع حينذاك أن نواجه كل الحداثات، والنظم الجديدة، وأنماط الاقتصاد الأخرى. المهم أن نعرف من نحن، ومن أين اتينا وإلى أين نحن ذاهبون؟

وإن الثقافة العربية والأسس الإسلامية لمتفتحة وهي تدعونا دائما لأن نوجدانسجاما بين التمسك بالثوابت والحرص على التقدم، وأن نقيم تحالفا بين الأصالة والمصير، وتوازنا بين ما هو دنيوي وما هو روحي.

إن الإبقاء على كيان العالم العربي ووجوده في المستقبل مشروط باستمرار التجديد والاجتهاد والإصلاح، وهذا ما حاولنا أن نقوم بجانب منه في هذا الكتاب، وذلك بطرح الأسئلة الضرورية المتعلقة بقضية جد صعبة، وهي التحديات الداخلية والخارجية التي يواجهها العالم العربي الإسلامي في زمن الحداثة، والهدف هو محاولة فهم وتجديد هويتنا وإحيائها، لأن المهم هو البنية العقلية، وتوجه القلب والرؤية، في علاقاتنا الأساسية مع ذاتنا، ومع الغير والعالم.

إن وجود العالم العربي غدا يتطلب بالقطع اجتهادا مستنيرا في النصوص والمراجع والمناهج والعقليات، كما يتطلب مقاييس علمية في العلاقة مع الغير في المحيط الإقليمي والدولي. فالعالم العربي ينبغي عليه أن يتجاوز مرحلة التبعية للغير والانتظار والامتثال لتنفيذ السياسات الخارجية.

إن بعض البلدان العربية تعيش منغلقة على نفسها، والبعض الآخر ينفتح لدرجة الذوبان، و علينا أن نجد طريقا وسطا. وإذا كنا نعيش كل المشكلات والصعوبات والتحديات في وقت واحد فإن هذا يفرض علينا أن نحسن إعداد المواطنين وتربيتهم لمواجهة متطلبات العصر، ولكى يكونوا على مستوى هذه التحديات.

فالوصول إلى حداثة عقلانية يتطلب منا أن نتذكر دائما النموذج العربي الإسلامي، والذي يرتكز على الانسجام والتوافق بين ثلاثة كيانات هي الكيان العقلي والروحي والطبيعي، والرسول ﷺ يمثل نموذج الإنسان الكامل الذي تنسجم فيه تلك الجوانب جميعًا.

إن الشباب العربي اليوم من حقه أن يطالب في وقت واحد بمتطلبات الحياة كلها، من تعليم وثقافة (احتياجات العقل)، وبناء أسرة، وتحسين وضعه الإنساني (احتياجات طبيعته)، وأيضا إحياء دينه (احتياجاته الروحية).

إن المعركة كبيرة وطويلة لتحقيق كل هذا، وإذا ما ركزنا على المستقبل، فهناك مجالات أساسية لا بد من التحكم فيها.

إننا نعرف أن من يسيطر على الإعلام يسيطر على الحكم، فالحداثة الغربية تستخدم وسائل الاتصال الجديدة للسيطرة على العالم وذلك عن طريق بنوك المعلومات، والشبكات الآلية والطرق السريعة للاتصال، والعالم العربي لم يعط في السنوات الماضية اهتماما كبيرا لقضية الإعلام والاتصال، رغم أن الحرب التي نعيشها اليوم، هي حرب نفسية، والسياسة هي قبل كل شئ

استعمال الخطب والصور والرسائل في المكان والوقت المناسبين، ولا يكفي أن نكسب التكنولوجيات، وإنما المهم هو مضمونها، الذي ينبغي أن يكون انعكاسا لأحوالنا كمجتمع وأفراد.

إن المسؤولين السياسيين ببرامجهم وخطبهم وأفعالهم عليهم مسؤولية كبيرة في تكوين مجتمع عربي إسلامي قادر على مواجهة تحديات الساعة. ورجال الثقافة والإعلام معنيون، بالدرجة الأولى، بهذه التحديات، كما أن مهمة وسائل الإعلام من جهة والمدرسة من جهة أخرى هي شرح مشكلات وقضايا المستقبل وبحثها وتفسيرها.

إن تكوين مواطن مسؤول وقادر على تغليب المصلحة العامة لا يمكن تحقيقه إلا عن طريق السماح بالحريات العامة واحترام قيم الشعب، والقضية الأساسية في المستقبل هي سيطرة عالم السوق، إن العمل والانتاج هو هدف التقدم، ولكن التحكم في الاحتياجات وفي منطق الاستهلاك اللامتناهي هو أمر ضروري خاصة أن ثقافتنا تختلف في نظرتها للحياة عن الحداثة الغربية الاستهلاكية النهمة بغير حدود.

إن الغنى ليس امتلاك كل الثروات ، ولكن الغنى الحقيقي هو الاستغلال الأمثل للموارد في سبيل الوطن وأبنائه ، مع ضرورة أن نتعلم التقشف ، لأن التبذير يضيع علينا كثيرا من الثروات ، على مستوى الدولة ككل وأيضا في حياتنا الخاصة ، أو في أعمالنا، وهذا يتطلب منا عقلانية ورشدا، من أجل الإعداد لمستقبل أفضل ، إن المعركة الاقتصادية ستكون أصعب، والتنافس وسيطرة السوق تخلق مشكلات متعددة. ويجب أن نقتصد من أجل الغد وما بعده في إطار التكامل العربي المنشود .

إن بقاء العالم العربي واستمراره غدا مرهون بتحقيق الانسجام والتوافق بين استخدام المنهج العلمي والتفتح على القيم السماوية الحقيقة السامية. والعرب

يبرهنون كل يوم على أنهم سائرون في طريق التقدم، مشاركون فيه بكل جد مهما كانت المشكلات والتناقضات والصعوبات، ففي المجال العلمي، نجد أن التحكم في العلم والتقنية، يتجلى فى الأعداد الهائلة من المهندسين والكوادر الفنية، وفي المجال السياسي تعمل الدول العربية تدريجيا، وفي مراحل انتقالية ومن خلال تجارب ومجهودات، لأجل بناء دولة القانون بمؤسسات شرعية، وفي المجال الثقافي يبرهن العرب كل يوم على نوعية العقلية المتفتحة على الغير، والقادرة على التكيف المستمر مع العصر والثقافات الأخرى، وإن ملايين العرب الذين يعيشون في الخارج، لدليل على ذلك.

وإذا كانت الشعوب العربية، بالأمس، قد صنعت التاريخ، على أساس المعنى والمفهوم الصحيح للحياة، والعلاقات بين البشر، مسلمين وغير مسلمين، وانطلاقا من اللغة العربية، تلك اللغة التي تتسم بالمنطق والعقلانية - أقول إذا كان مفكرو الإسلام قد أسهموا بهذا إسهاما فعالا في العالمية وشاركوا في تكوين الحداثة الحقة التي غيرت وجه العالم - فإن نقد مسيرة العالم الحديث والقراءة الناقدة للغة الإسلام وتطبيقاته، في القديم والحديث، يمكن أن تؤدي إلى فهم أزمة القيم والإحساس بجسامة المخاطر بل إلى نشوء ثقافة أخرى مغايرة لنموذج عالم الحداثة.

إن المظاهر الوحشية الجديدة في العالم إنما ترجع، أساسا، إلى عدم القدرة على الحوار، وغياب إمكانية التكامل بين الثقافات في ظل سيطرة رأس المال وتدمير هويات الشعوب.

إن ما نبغيه هو حداثة إنسانية وعقل عقلاني، وذلك كي نعيش الحياة بمعناها الصحيح في هذه الدنيا، ولكي نعد أنفسنا، في نفس الوقت، للآخرة.

ولا شك أن الطريق المؤدي إلى تحقيق ذلك ليس ممهدا بل يبدو أنها مملوءة بالمعوقات، ومسيرة المسلمين منذ وقت الرسول ﷺ إلى يومنا هذا، رغم

كل الأحداث التي شهدها التاريخ، تؤكد أنه من الممكن ضمان التقدم مع التمسك بالإيمان، بشرط وضع التوجيهات والتعاليم القرآنية موضع التنفيذ بصورة متفتحة وعقلانية، العالم الإسلامي أمة وسط ، وهو جدير بالاهتمام وبإمكانه في الغد القريب المساهمة في تشكيل عالم أكثر إنسانية، مرتبط بالمعنى الكامل للحياة.

إن العمل اللا متناهي للمنطق، والإنتاج بدون حد للثروات والذي يهدف إلى تطوير وتحسين أحوال الانسان يطرح مشكلا كبيرا، إذ كيف ننظم، ونسير التجارة، في هذا الزمان، دون أن تؤدي متطلبات السوق إلى كسر الروابط الثقافية والإنسانية بين الأفراد والشعوب ؟ لا أحد بمقدوره إيقاف التقدم، ولكن يتوجب إيقاظ الضمائر، إن الإيمان شيء عظيم لكنه يتطلب إعمال العقل والفكر، والتفكير بحرية أمر حيوي ولكنه وحده غير كاف.

ولإنقاذ الحياة الإنسانية ومواجهة تحديات الساعة في مجموعها ـ وهي على المستوى الخارجي النظام الدولي السياسي وعولمة السوق والحداثة الغربية، والتي تتسم بأزمة القيم وإنكار الجوانب الإنسانية والثقافية للشعوب، وعلى المستوى الداخلي هي تطرف قوى الرجعية والنسيان، وضعف الحريات العامة والخاصة ـ يتعين السعي نحو إيجاد وتشكيل مجتمع حر يعرف كيف يربط ويجانس بين متطلبات العقل والإيمان والتنسيق بين متطلبات العالمية والخصوصية.

وفي مواجهة انحرافات الحداثة ، فإن المؤمنين لم يزالوا ثابتين متمسكين بقيمهم ولم يسقطوا بعد، فآثار عولمة السوق وتجاوزات السلطات المتعددة الداخلية والخارجية لم تنجح بعد في التشويه التام للإنسانية الحقيقية التي ترفض الرضوخ في مواجهة مصاعب الزمن ولكن إلى متى تستمر روح الصمود والمقاومة تلك ؟

إن الوجود حقيقة مهدد من كل جانب ، ولكن المقاومة ممكنة، لإنقاذ ما بقي من كل ما هو جميل ، وعادل ، وأصيل، فكيف يمكن تحقيق ذلك؟ يتحقق ذلك بالمقاومة عن طريق الحوار مع الآخرين، والوفاء للأصل والانفتاح على التقدم العالمي للمعرفة، مع تطوير وإيجاد نمط حياة خاص يتسق مع الإسلام، بحيث لا ننعزل عن العالم ولا ننغمس ونغوص فيه، إنها حقيقة يرددها القرآن الكريم ويتوجه بها لقلوب الناس وعقولهم، أولئك الذين يعلمون أنه ليس كل شيء يباع ويشترى، وأن هناك قيمًا يتعين الإبقاء عليها وتجديدها، لأنها هي الحياة ذاتها .

المؤلف، وحده، مسئول
عن الأفكار والآراء
الواردة في هذا الكتاب.

الفهـرس

رقم الإيداع ٥٥٠٥/٩٩

الترقيم الدولى 5 - 0544 - 09 - 977

مطابع الشروق

القاهرة :٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت: ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)

بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)